محمد سعدون

سيرابا

رواية

خيال
للنشر والترجمة

سیراب

المؤلف : محمد سعدون

عنوان الكتاب : المختصر في منهجية البحث الأدبي

تصميم الغلاف : عز الدين طيبي

الطبعة الأولى : السداسي الأول 2019

ردمك : 978-9931-738-12-1

عنوان الدار :

تجزئة 53 قطعة رقم 27 بليمور 34025

برج بوعريريج - الجزائر

الهاتف : 0558690640

البريد الإلكتروني : Khayaleditions@gmail.com

كل الحقوق محفوظة

محمد سعدون

سيـــرابـــا

روايـة

الإهداء

إلى

عشاق الإنسانية جميعا...

أزفت لحظة الهروب من أجواء الموت والترقب والقرف وتشظي الذات.. وكانت فلتة من الزمن أن يقذف بي في أحضان إفريقيا السمراء.. لأجد الاستقرار والأمان وكثيرا من الرومانسية والحب.. ولأسمع مناجاة الكون وقد تراءى لي في صورة أنثى تبوح بالحنين وتفضي بأسرار البداءة الأولى..

وصلت ذات صباح إفراقي باكر إلى السنيغال وبعدما أخذت قسطا من الراحة في فندق السلام، في شارع الحرية بداكار خرجت للتجول في هذه المدينة التي بدت لي رائعة بما تنطوي عليه من مآثر إفريقية تثير الدهشة والاهتمام وقد تملكني حبور طافح وأنا أتنقل في شوارعها الرحبة وأسواقها المكتظة تحت رذاذ مطر هادئ وعبق السمرة والعنبر والتراب ينبعث من ذلك الجو الإفريقي الصائف.

وأحسست بالنشوة العارمة لما احتضنتني المدينة بالدفء والمطر وهبات أنسام الأطلسي المفعمة بعطر فاكهة حقول المنج المجاورة، وسحرتني روعة المكان الذي تستكن فيه جوهرة البداية، وطفقت أطوف بأرجاء المدينة بين أجناس مختلفة من البشر وفدت إلى السنيغال من جميع أنحاء الدنيا من الصين ولبنان وسوريا وفرنسا وإيطاليا وغيرها.

واستوقفني تمثال المسيح ومريم العذراء على مدخل الكنائس في صورة زنـجيين أسودين، وتهت طويلا في فلسفة السواد

المتألق منهما، وشدت انتباهي تسبيحة من الإنجيل المقدس منحوتة بشكل بارز في كل مدخل تقول (المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة) وهي تسبيحة ترنمت بها الملائكة وهي هابطة في جوقة من السماء إلى بيت لحم احتفاء بالمسيح عليه السلام ليلة الميلاد.

ومن لدن المسيح المخلص وروحه وجدت نفسي شاخصا من حيث لا أدري أمام بناية ضخمة تحدق بها أشجار السرو والصفصاف والموز، ويحيط بها سياج من حديد كتب في أعلى بوابتها بحروف لاتينية لقاء مريم، ودعاني الفضول للاطلاع على ما يوجد داخل هذا البناء العظيم فاقتحمت المكان وأخبرني حارسه الزنجي بأنها مدرسة خيرية يتعلم فيها الأطفال الديانة المسيحية بالمجان.

واستمتعت في ذلك اليوم أيضا بلعبة السيمبي في أحد الأحياء الشعبية، وهي لعبة قديمة توارثتها الأجيال ويقوم بدور هذه اللعبة شاب قوي البنية مفتول العضلات يؤدي حركات بهلوانية ويضع تبانا قصيرا أحمر ويطلي وجهه وأطرافه وسائر أجزاء جسمه بألوان مختلفة من الطلاء ويهرول في عرض الشارع وطوله محاولا القبض على من يقع عليه اختياره من الحشود البشرية التي تهرع وراءه وتتدافع حوله وترقص مصفقة له وتفر من أمامه خوفا من صولاته وجولاته المرعبة، فإذا أمسك

بأحدهم طرحه أرضا وعفره في التراب، ولا يخلي سبيله إلا إذا دفع له شيئا من النقود..

استمتعت بهذه اللعبة الطريفة التي تدل على خفة الروح والميل للهو والمرح لدى هذا المجتمع الإفريقي البسيط.. إنها لعبة ساذجة لكنهم يستمتعون بها كثيرا وتثير فيهم الفرح والسرور.

عدت في آخر المساء لتناول وجبة العشاء في الفندق، وقد غمرت بالإعجاب والدهشة بما مر بي في ذلك اليوم من مشاهد مثيرة ورائعة في نفس الوقت.

وما أن استقر بي الجلوس على الأريكة في صالون الفندق حتى وقع بصري على شاب أجنبي يغازل فتاة سنيغالية لا تتجاوز سن السادسة عشرة، وقد اندهشت لرؤيته هنا في الفندق حين تأكدت أنه واحد من تلك المجموعة من الشباب القادمين من فرنسا على متن الطائرة التي أقلتني من الجزائر إلى السنيغال، وقد ملأت جو الطائرة غناء وطربا وموسيقى أثناء الرحلة، وجلت بنظري في الصالون أبحث عن بقية أفراد المجموعة بين الحاضرين ومعظم هؤلاء من جنس أوروبي يتعاطون قناني الخمر، ويغازلون فتيات سمروات لا يزلن في ميعة الصبا وشرخ الشباب..

ولكن لا أثر لتلك الشلة الفرنسية في الفندق، ومع ذلك ظل يراودني الأمل لوجود هذا الفتى الفرنسي هنا، ولا شك بأن

إقامتهم هنا في هذا الفندق، ولسوف أقضي أياما ممتعة مع تلك الشلة المرحة من الفرنسيين.

ثم صعدت إلى غرفتي في الطابق الأول لتناول ما أحضرته معي من طعام وفاكهة من السوق بلا ريث، ثم أقفلت باب غرفتي وجعلت أطوف في أجنحة الفندق الكبير علني أرى فرانسواز ذات القصة الغلامية الذهبية أو أقع على تلك الفتاة الشقراء الطروب التي كانت تتأود كالملاك مع أنغام القيثار الشجية أو أبصر كوليت ذات الصوت الندي الرخيم التي غنت قصيدة رومانسية من أغاني الرعاة وهي تبدي وتعيد وتقول كلمات الأغنية:

هذا المساء القمر فيه جميل
على منخفضات الدروب
حيث العشب الجديد
الربيع ليس بعيدا
هيا هيا يا قطيعي
هيا هيا سوف نصل عن قريب

لكن واأسفاه! لا أثر لأولئك القادمين من بلد الجن والملائكة.

وتمضي الساعات ويعتريني الشعور بالخيبة وقد أرهقني الصعود والهبوط بين طوابق الفندق بحثا عن بقية أفراد الشلة، ولكن دون جدوى.

فمكثت في الصالون أرقب من كثب ذلك الشاب الفرنسي عله يكون دليلا لي على مكان وجود البقية الغائبة.. وبعد فترة خرج الشاب من الفندق مع تلك الفتاة السنيغالية ذات الجسم الرياضي الرشيق والنهود البرونزية الصارخة، وتابعتهما بنظرة يائسة إلى أن احتواهما ظلام الشارع الممتد تحت أنوار مصابيح كهربائية خافتة، ثم عدت إلى غرفتي وقضيت معظم الليل ساهرا أستعيد ذكريات اليوم منتظرا يوما آخرا حافلا بالأحداث، ثم استسلمت للنوم وقد أنهكني التعب والإعياء.

دقت الساعة التاسعة بعد أن نمت نوما عميقا على الرغم من حرارة الفندق الذي لم يكن مكيفا، فتناولت فطور الصباح في الفندق، ثم انطلقت في شوارع داكار أتأمل ما تحتويه واجهات المحلات من سلع كثيرة باهظة الأثمان من آلات صناعية وسيارات من أعلى طراز ومررت بالمطاعم الفاخرة والحانات الأنيقة والفنادق الفخمة والحدائق العامة، وقد عجت المدينة بأعداد لا تحصى من الأجانب والغرباء الذين يبدو عليهم كأنهم رجال أعمال أو تجار كبار..

ونالت من نفسي تلك الفئة العريضة المسحوقة التي تتضور جوعا على أرصفة الطرقات وفي الساحات العمومية وهي تصل ليلها بنهارها تحت رحمة السماء وبؤس الأقدار.

داكار حلبة واسعة يستبد فيها جبروت المادة بشكل رهيب ويصول فيها البؤس كالتنين الذي لا يقاوم.

قادتني قدماي إلى السوق الشعبية التي يعلو فيها عجيج العامة وتزخر بسلع تستهلك داخليا من ألبسة جاهزة وأقمشة مجلوبة من الصين وأندونيسيا والهند وغيرها من البلدان، كما تعرض فيها بعض الصناعات التقليدية المحلية التي يقتنيها السواح.

واصلت جولتي في أرجاء المدينة حتى تورمت قدماي، فدخلت حديقة عامة تتوسط شارع الحرية الواسع العريض وتمتد على مدى طوله وشرعت أطالع جريدة الأحداث التي اشتريتها من أحد الأكشاك، وشدني مقال مهم يجسد الصراع القائم بين الأحزاب السياسية والطرق الصوفية سيما الطريقة التيجانية المهيمنة هناك، وتراها بعض الأحزاب مصدرا للفقر والبؤس لاستيلائها على معظم واردات الوطن.

كان المقال هجوما على شيخها الذي نعته صاحب المقال بأنه بالوعة (للسيفا) في السنيغال.

وفجأة وأنا مستغرق في قراءة الجريدة يمر بي رجلان يهرولان، ثم انكفآ نحوي فجأة ومثلا أمامي في أسمال بالية وهيئة رثة، يحمل كل منهما على كاهله فراشا مطويا وسجادة للصلاة وإناء فخاريا مشدودا في وسطه، وألقيا علي التحية في تواضع جم، وقد أشرقت أساريرهما على الرغم من التعب البادي على محييهما الشاحبين، وطلبا مني أن أجود عليهما ببعض النقود فأخبرتهما بأني غريب ولا أملك مالا كافيا لسد حاجياتي فألقى إلي أحدهما ما كان في يده من قطع نقدية وودعاني مباشرة ثم واصلا سيرهما الحثيث وهما يرددان صيغة التهليل والتكبير في عجمة ورطانة زنجية.

وعجبت لأمر هذين الرجلين وتأكدت أنهما سائحان من مريدي إحدى الطرق الصوفية يجاهدان في سبيل الوصول حيث يكلف شيوخ الطريقة أتباعهم برياضات روحية وبدنية شاقة للتغلب على النفس الأمارة بالسوء وإذلالها.

ثم تحسست حافظة نقودي لأضع فيها ذلك المبلغ الزهيد الذي ألقاه إلي المريد، وفتشت جيوبي فلم أعثر لها على أثر وهي تحوي كل ما أملك من العملة الصعبة، ولم يتبق في جيبي سوى رصيد غير كاف من السيفا التي استبدلتها فأسقط في نفسي وارتبكت كثيرا ونهضت في الحين أبحث عنها متتبعا الأماكن التي توقفت فيها، فسألت صاحب الكشك الذي اشتريت منه

الجريدة وسألت بعض الباعة الذين توقفت عندهم في السوق الشعبية، ولكن دون طائل ولحسن الحظ فإن أوراقي الشخصية كانت في حقيبتي داخل الفندق، وشعرت باليأس والمغص في آن واحد وصرت لا أملك شيئا إلا تلك القطع التي منحني إياها السائحان وذلك المبلغ الزهيد من السيفا.

وأسرعت نحو الفندق مستشيطا قلقا وأنا لم أدفع ثمن الليلة القادمة فوجدت صاحبه محنقا حين تأخرت عليه إلى ما بعد منتصف النهار دون أن أسدد الثمن، وأصر على الدفع حين تجاوزت الوقت المحدد وعلى الرغم من إخباره بما حدث لي إلا أنه لم يعر كلامي أي اهتمام ثم ناولني الحقيبة التي كان يضعها تحت مكتب الاستقبال مغضبا برما.

خرجت من الفندق لا ألوي على شيء، وادلهمت الدنيا أمام ناظري ثم لاحت لي فكرة وهي أن أنزل إلى السوق لأبيع بعض أمتعتي الخاصة وعرضت بعضها للبيع فلم يقبلها مني أحد من التجار، ثم نويت أن أقضي الليلة القادمة في المطار وهو دائم الحركة على مدار الساعة ولحسن الحظ أنني دفعت ثمن التذكرة ذهابا وإيابا لأجل غير محدد، ولكن تبقى المشكلة في كون الطائرة المتوجهة إلى الجزائر لا تقلع إلا في بداية الأسبوع القادم إذ ليس هناك إلا رحلة واحدة في الأسبوع من السنيغال إلى الجزائر، ثم فكرت في الذهاب إلى القنصلية الجزائرية علني أجد حلا هناك

واهتديت إليها بعد جهد وعناء وهي تبعد كثيرا عن وسط العاصمة داكار، وقد أنهكتني حقيبتي التي ناءت بها أطرافي وأخبرني حارس القنصلية بأن المسؤولين غير موجودين هذا اليوم، وتضاعف الإحباط واليأس في كياني ومع ذلك لم أعدم بقية من الاعتقاد بأن المقادير تصنع المستحيل عندما تشتد الأزمات والملمات، ولا أدري كيف ترسخ لدي هذا الإحساس الميتافيزيقي وأنا ذو طبع منطقي روماني.

وفي هذه الأثناء وأمواج الحيرة تتقاذفني تسوق الأقدار شابا يدخل القنصلية، أسمر اللون طويل القامة يرتدي لباسا أشبه بالزي المغربي وتحدث مع الحاجب ولم يمكث معه إلا قليلا ثم خرج ليجدني واقفا أمام مدخل القنصلية أضرب أخماسا بأسداس، وبسجيته الإفريقية أدرك حيرتي وقلقي فبادرني بالسلام باللغة العربية وسألني عن الوقت الذي يمكن أن يتواجد فيه الموظفون وكأنه لم يظفر من الحاجب بجواب كامل، ثم سألني عن حاجتي فأخبرته بالأزمة التي ألمت بي حين توسمت فيه خيرا.

هون علي هذا الشاب الأمر لما طلب مني أن أرافقه وقد طمأنني واعدا إياي بالمبيت معه في زاوية شيخه الطرقي ما شئت من الأيام، وأخبرني بأنه يملك غرفة خاصة في الزاوية فليس هناك مشكل على الإطلاق.

تنفست الصعداء وانزاح عني كابوس ثقيل كان قد جثم على صدري بقوة، وشكرت له صنيعه وهو يقف معي في هذه المحنة القاسية، وفي الطريق عرجنا على أحد المقاهي وتناولنا كأسين من الشاي واندمجنا في الحديث وخضنا في أمور شتى وكان اسم هذا الفتى عمر لاي، وأثناء جلستنا طرحت عليه فكرة الرغبة في العمل فوعدني أيضا بأنه سوف يسعى معي بكل جهد ليجد لي منصبا.

ونهضنا لنواصل السير نحو الزاوية، ثم انعطف بي نحو بعض المؤسسات الخاصة التي فتحت لنا نافذة للأمل في التوظيف بعد أيام.

وواصلنا سيرنا مرة أخرى إلى الزاوية التي تقع في أقصى أطراف داكار في حي يسمى واكام، وتتشكل الزاوية من بنايات متفرقة داخل سور عظيم، تفصل بينها أشجار مثمرة من تين وعنب ومنج وفواكه أخرى متنوعة، ويطوف بالحديقة بستاني طيب يصرف المياه ويصلح الأشجار.

تقع غرفة عمر لاي في أحد أقسام الزاوية القريب من بناية الشيخ الفخمة، وتحوي سريرا متواضعا مغطى بعناية بأزر نظيفة وإلى جانبه مائدة صغيرة وضع عليها مصحف القرآن الكريم، ونضدت عليها بعض الكتب الدينية القديمة وعلى الجدار المقابل خزانة حائطية علق بداخلها قمصانه وجلابيبه ذات الألوان

الصارخة، وفي الطابق العلوي منها مجموعة من الكتب العتيقة أيضا.

ويستعد عمر لاي لمقابلة شيخه الصوفي في بيته ليستأذنه في إيوائي وقد بدا عليه الاهتمام والثقة بالنفس إلى درجة لم يراودني فيها شك بأن الشيخ سوف يلبي طلبه.

انتظرته في الحديقة منشغلا بالحديث مع ذلك البستاني الكريم الذي استقبلني بحفاوة وقدم لي بعض الثمار الناضجة.

مرت حوالي عشرون دقيقة، خرج بعدها عمر لاي مقطب الوجه وفي حالة قصوى من التوتر والاستنفار وأخبرني بأن الشيخ رفض إقامتي في الزاوية بحجة انعدام الأمن هذه الأيام، ولم أعهد من طرقي أو صوفي التعامل بهذه الصورة سيما إذا كان شيخا وصاحب طريقة.

وخرجنا معا من الزاوية لا ندري إلى أي وجهة نتجه، وبدا لي عمر لاي متكتما عن سرد تفاصيل لقائه مع الشيخ.

مشينا بخطى عشوائية مثقلة، وتوقفنا على بعد مسافة من الزاوية أمام كشك، وبداخله ثلاثة شبان يتحاورون ومعهم فتاة برزة يعلو صوتها عليهم، فاقترحت على عمر لاي وأنا على يقين بأنني كالذي يتشبث بقشة أن نسألهم عن دار الشاب لعلي أجد المبيت هناك ما دمت أملك بطاقة الانخراط العالمية في مخيمات الشباب.

وتقدم عمر لاي من المجموعة وخاطبهم بالأولوفية فلم أفهم ما دار بينه وبينهم، إلا أنني أدركت من خلال إشاراتهم بأنهم لا يعرفونها.

كانت تلك الفتاة البرزة اللسنة والمعتدة بنفسها تتحدث مع عمر لاي وهو يروي لها قصتي، وأثناء ذلك كانت تحدجني بعيون مهتمة لا تخلو من تأثر الأنثى ورقتها.

ثم وجهت إلي الكلام باللغة الفرنسية مطمئنة إياي قائلة بلهجة حازمة: لا تفكر سأجد لك حلا.. تعال معي.

وفي هذه الأثناء شعرت بيد القدر تتدخل لتضع حدا للمعاناة واجتازت بنا الفتاة شارع واكام الرئيسي، وتوغلنا في الأحراش والآجام.

وتابعنا السير برفقتها عبر مسالك ضيقة بين الأشجار التي ألقت بأغصانها الشائكة على سطوح المنازل المبنية بالأخشاب والقصدير.

كانت الفتاة المتنمرة تتحدث مع عمر لاي بالأولوفية، تتقدمنا أحيانا وتضع أقدامها الحافية بحذر على الأرض ترتدي جبة صفراء لا تتجاوز نصف ساقيها الممتلئين عليها بقع بنية تتثنى وتتماوج مع حركة جسمها المكتنـز، وكان لمشيتها الرائعة تناغم مثير وقد زادتها الحيوية والأنوثة جاذبية وإثارة، وكلما مر بنا واحد من أهل الحي المختفي داخل الغابة حياها باحترام

وناداها باسمها سِيرَابَا عند التحية، كان لوقع هذا الاسم صدى غريب يتغلغل كنبرة الوحي في دمي.

وصلت بنا سيرابا إلى أحد البيوت المتربع تحت ظل شجرة ضخمة ويجثم على ربوة صغيرة ينيف منها على ساحة غير واسعة تقابله من تحته أكواخ فقيرة وقد قاربت الشمس المغيب فدقت الباب ونادت: تيام.. تيام.

فخرج رجل في حوالي الأربعين من العمر ربع القامة أسمر اللون يرتدي جلبابا أزرق تتقد عيناه صرامة وحزما، وتبادل التحية مع سيرابا ثم صافحنا، وطرحت عليه الفتاة الموضوع باقتضاب فأمرنا بالدخول خافضا لنا جناح كرمه، ورحب بنا ونادى امرأته ماري وكلفها بإعداد الشاي ثم وجه إلي الكلام بالعربية في لهجة سودانية قائلا:

أنت في بيتك لا ينقصك شيء.

فشكرته لكرمه وحفاوته وحسن استقباله فقال:

أنت فصيح وتتقن العربية جيدا.

قلت: أنا عربي أتكلم العربية ولا أدعي أنني فصيح إلى درجة كبيرة.

قال: إن شيخنا فصيح أيضا ويتقن العربية جيدا وقد درس في مصر وسوف نذهب إليه غدا لأعرفك عليه وليساعدك أيضا.

ارتحت لكلام تيام أيما ارتياح وأدركت أنه يحب العربية وتأكدت أن الأزمة قد فرجت تماما وسيبدأ فصل آخر من هذه الرحلة غدا وتهيأ لي بأنه حافل بكل ما هو غريب.

وأثناء شرب الشاي دار حوار طويل بين الثلاثة تيام وعمر لاي وسيرابا باللغة الأولوفية، وكان حوارا جادا ساخنا حيث تجلى ذلك في صوت كل واحد منهم وفي حركاته ونظراته.

وبعد مضي حوالي ساعة من السهرة استأذنت سيرابا في الانصراف وشكرتها كثيرا على موقفها معي، ثم خرجت تاركة في ذهني أثرا خفيا مبهما.

وظل الحوار دائرا بين تيام وعمر لاي وانصرف عمر لاي بعد الانتهاء من وجبة العشاء أرز وسمك واعدا إيانا بأنه سوف يعود في صباح غد.

أعدت لي ماري فراشا وثيرا.. وسهرت مع تيام إلى وقت متأخر من الليل، ونحن نقلب صفحات بعض الكتب التراثية القديمة المجلدة التي كان يحتفظ بها في خزانة خاصة، وقد راقته فصاحتي في اللغة العربية ووجد ضالته في السؤال عن كثير من الألفاظ التي لم يهتد إلى معناها وظلت عالقة بذهنه وعن تفسير بعض الأحاديث الشريفة والآيات القرآنية وسألني عن كلمة الجفلى التي كان يتعطش إلى معرفة معناها ففسرتها له وقد هزه فرح شديد حين استشهدت له ببيت جاهلي:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا تـرى الآداب فينا ينتقـر

وشرحت له معنى البيت بالتفصيل وهو يستمع باهتمام كبير فراقه معناه كثيرا واهتز له ورده إلى أن حفظه.

ثم سألته عن سر اهتمامه بهذه اللفظة فقال:

نحن نرددها دائما عندما تلتقي الجماعة للسماع في الزاوية في قولنا:

(لا إله إلا الله نحن قوم الجفلى) ولا أحد فينا يعرفها وسأقول للشيخ إنك تعرف معناها، ثم وعدني قائلا:

سنذهب غدا إلى الشيخ وسوف يلبي طلبك ويجد لك عملا إنه عالم مثقف لا يخفى عنه شيء، وله نفوذ في السلطة.

ووصفه أوصافا تدل على اعتقاد راسخ وطاعة عمياء لهذا الشيخ الطرقي الذي يملك العلم والجاه والسلطة والمال، ثم تركني وانصرف للنوم مترقبا نتيجة يوم غد مع الشيخ الأكبر في حرص واهتمام.

عندما خلوت إلى نفسي مستقلا فراشي، وقد نسيت أزمتي تماما، فكرت طويلا في سيرابا.. إنها فتاة قوية الشخصية جذابة مثقفة ورائقة الحديث تفيض أنوثة ممتلئة الجسم تبدو كاللبؤة ذات جمال متوحش وهي مغرية إلى حد لا يوصف.

وفي صبيحة غد جاء عمر لاي فتناول معنا فطور الصباح وحضرت سيرابا بعد ذلك لتملأ المكان احتفالا وتمنح الجلسة

نكهة خاصة واستمر الحديث مطولا في ذلك الضحى الذي اشتد فيه الحر حتى صار الجو خانقا لا يكاد يطاق غير أنهم كانوا لا يشعرون بلذع الحرارة التي تكتم الأنفاس.

وبدت لي سيرابا في هذه الأثناء أيقونة إفريقية رائعة ذات صوت أبح ضحكاتها تند عن أزيز ينم عن أنوثة شرسة، تحتج أحيانا فتكرر بعض الكلمات الأولوفية.

أما أنا فكنت جالسا في صمت، وقد أنستهم المواضيع التي يناقشونها حضوري غير أنني كنت سعيدا بوجود سيرابا، وربما أدركت درجة اهتمامي بها فهي ترمقني أحيانا لتجدني أنظر إليها مليا، وقد لقنني تيام فيما بعد عبارة بالأولوفية (خولي مولي) أي لماذا تنظر إلي هكذا؟ ولم يفصح عن سبب تلقينها إياي، وفهمت بذلك أنها إشارة لي لكي أنظر بشكل عادي دون أن ألفت الانتباه أو ربما أن سيرابا قد طرحت عليه هذا السؤال لما رأت نظري لا يفارقها.

أما عمر لاي فهو يتحدث بجد ولا يبدو عليه شيء من الرغبة والميل عندما يوجه الخطاب إلى سيرابا التي تخص تيام بمعظم الحديث، ولم تنته تلك الجلسة إلا حوالي الساعة العاشرة.

أما ماري فقد كانت في الداخل ولم تشارك الجماعة الحديث مطلقا ويظهر عليها أنها ذات طبيعة انعزالية، فهي قليلة الكلام يوحي هدوؤها وصمتها بانكسار في نفسها، ثم ودعنا عمر لاي

وسيرابا وانصرفا معا من بيت تيام.. وطافت على نفسي سحابة تنبئ عن غيم كثيف قادم إثر خروجهما معا متلازمين.

أصلح تيام من هندامه وارتدى جلبابا أنيقا وطاقية تركية وتحدث مع ماري قليلا، ثم حمل معه معدات الشاي واتجهنا معا إلى زاوية الشيخ التي تقع في حي منج قريبا جدا من داكار العاصمة كما أخبرني بذلك تيام أثناء الطريق، ووصلنا إلى محطة النقل وهو لا يني يذكرني بالصورة التي رسمها لي عن الشيخ ليلة البارحة قائلا مرة أخرى:

إن الشيخ ذكي جدا ومثقف ويتقن ست لغات ويجالس كبار المسؤولين والوجهاء في السنيغال وماله لا يحصى ولا يعد.

فقلت: وما دورك أنت في الزاوية؟

قال: أنا إمام أنوبه في الصلاة بالجماعة في الزاوية فضلا عن كوني معلما للقرآن الكريم أعلم الصبية في واكام وأتقاضى من عنده شهريا خمسا وعشرين ألف فرنك فرنسي قديم.

قلت: وهل يفي هذا المبلغ الزهيد بحاجياتك؟

قال: أبدا إنه مبلغ رمزي ولكنه يمنحني في كل شهر قسطا من الأرز والسكر والشاي.

ركبنا إحدى سيارات النقل بعد أن ساوم تيام في المبلغ قائلا للسائق: (فوكو فوكو) وهو سعر أقل من التسعيرة الرسمية فقبل صاحب النقل منه هذا التخفيض.

ثم وصلنا إلى حي منج ويبعد هذا الحي عن العاصمة داكار عشرة كيلومتر. وهو شارع كبير تحف جانبيه أشجار ضخمة من أشجار المنج، ودخلنا من بوابة كبيرة يحرسها شاب بدين أسود من خدم الزاوية، وتتربع الزاوية على مساحة واسعة وهي بناية أرضية عظيمة محاطة بالأشجار الصغيرة المقلمة بعناية وتتسلق جدرانها أغصان اللبلاب المتشابكة وقسم فناؤها إلى مساحات خضراء مربعة غرست في وسطها أنواع من الورود المختلفة.

وعبرنا من خلال ممر يمتد من البوابة الخارجية إلى قاعة الاستقبال الفسيحة المفروشة بالزرابي، وهب الجالسون يسلمون على تيام بحفاوة كبيرة ومن بينهم بعض النساء، كان هؤلاء من أتباع الزاوية يأتون إليها من أماكن بعيدة للزيارة والاحتفال في آخر كل أسبوع.

صافحتهم جميعا واحدا واحدا حتى النساء بادرن بأنفسهن إلى مصافحتي، وعنت الوجوه إلى تيام يسألونه ويتحدثون إليه ودامت تلك الجلسة إلى منتصف النهار حول طاولة وضع عليها إبريق نحاسي ضخم من الشاي، كانت تلك الجلسة تشبه اجتماعا قبليا بحيث إذا تكلم واحد من الجماعة استمع إليه الجميع في تقدير واحترام.

كانوا يرتدون جلابيب إفريقية ذات ألوان صارخة، أما النساء فيلتحفن بشملات تشف عن بعض الأجزاء الحساسة من

أجسادهن فقد لا تبالي الواحدة منهن بظهور نهدها من خلال كمها الواسع أو حين تتعرى أطرافها وسيقانها.

ولاحظت عليهم العناية بالمظهر والهندام من خلال الأثواب النظيفة التي تنبعث منها رائحة العطور ويضوع منها المسك المذفر فتفعم أجواء القاعة بالعبق والعبير وبرائحة العرق الذي يتفصد من الأجساد المتعرقة.

مال علي تيام وأخبرني بأن الشيخ ليس في الزاوية، ولا بد من انتظاره لمقابلته عندما يعود.

ثم أحضرت الخادمات إناء واسعا مملوءا أرزا وعليه قطع السمك الكبير، وتقدم الجميع للأكل بأيديهم دون ملاعق، وغب الانتهاء من الطعام غمسوا أيديهم في دلو ماء وضع جانبا هناك في الزاوية الخلفية للقاعة لهذا الغرض حتى غدا ودقا خالصا في النهاية.

تواصلت الجلسة بعد الغداء إلى أن رفع أذان الظهر، فتوضأ الجميع واتجهوا إلى قاعة أخرى مخصصة للصلاة وصلى بهم الإمام تيام أو المقدم تيام صلاة الظهر، جلس كل واحد غب الصلاة والسبحة في يده يؤدي ما عليه من أوراد صوفية مطولة.

واستأذنت تيام في الخروج للتجول في المدينة أما هو فقد بقي مع الزوار يتصدر الجلسة ويعد كؤوس الشاي التي يعلوها الحبب.

نزلت سيرا على الأقدام إلى داكار العاصمة، وتجولت في الشوارع والأحياء على الرغم من حرارة الجو ورطوبته واختناقه وكنت كلما شعرت بالعطش بادرت إلى شراء كيس مطاطي يحوي شربة مروية من الماء البارد الذي يباع بثمن زهيد على أرصفة الشوارع في صناديق مثلجة، ثم اشتريت جريدة الاستقلال وجلست في أحد المقاهي أطالع بعض عناوينها..

ولا أدري كيف ذهلت عن القراءة وسرحت بخاطري فمرت بذهني صورة عمر لاي وسيرابا وهما يخرجان معا من بيت تيام متلازمين، وساورني الشك بأن حضوره مبكرا في هذا الصباح إلى بيت تيام لم يكن بريئا بل جاء قطعا ليلتقي بسيرابا مرة أخرى، نعم جاء رغبة فيها ليوطد العلاقة معها.. أو هكذا خيل لي.

ترى هل راقته فعلا أم أنه مجرد تصور واهم؟

ترى هل شعر بما شعرت به نحوها من ميل أم هو تخريص لا أساس له من الصحة؟.

ورحت أسبح في تهويمات ذاتية تغذيها الغيرة والعاطفة المتأججة نحو سيرابا إلى أن أفرغت تلك الشحنة التي امتلأت بها مخيلتي ثم قلت في نفسي:

لعلي أكون مخطئا في تصوراتي، فلم يسعني إلا أن طرحت تلك الوساوس المقلقة التي استبدت بي ساعة وطوحت بي في

دهاليز من الريبة والشك في أمره، وقررت حين عازني الدليل أن أنتظر ما سوف تأتي به الأيام التوالي.. نعم لا بد من الانتظار حتى يثبت اليقين.

وفي آخر المساء قفلت راجعا إلى الزاوية فوجدت الشيخ لا يزال غائبا وجاءت صلاة المغرب ولم يحضر أيضا.. فصلى تيام بالحاضرين صلاة الجماعة ثم تناول الجميع وجبة العشاء وهي نفس أكلة الغداء أرز وسمك.

وعدت مع تيام بعد صلاة العشاء إلى بيته في واكام واعدا إياي مرة أخرى بمقابلة الشيخ الجليل في يوم غد.

وبتنا تلك الليلة نتناقش في أمور كثيرة وعلمني بعض القواعد والألفاظ الأولوفية، وعلمت منه في تلك الليلة أن سيرابا طالبة جامعية حين وردت عرضا في ثنايا الكلام.

وفي صباح اليوم التالي بعد أن ارتفع النهار، تجمع صبية الحي تحت صنوبرة ضخمة وارفة الظلال تخيم على بيت تيام الصغير وتغطي جزءا من تلك المساحة الواقعة أمامه، ويتكون بيت تيام من مدخل ضيق أو سقيفة مستطيلة الشكل وقد وضع تيام في إحدى زوايا تلك السقيفة خزانة تحوي كتبا ومجلدات قديمة مغلفة بالجلد الأحمر وفي أحد طوابقها مخطوطات وأوراق علاها الاصفرار وأصابها البلى من أثر الرطوبة وتفضي تلك السقيفة إلى غرفة صغيرة للجلوس وطهو الطعام وهي منفتحة على غرفة

أخرى للنوم تؤدي إلى فناء داخلي يسمع منه لغط لجيرانه وحركة مزعجة لا تهدأ.

خرج تيام على تلاميذه العراة أو بالأحرى بأسمال رثة تغطي جزءا من أجسامهم السمراء النحيفة في هيئة فهد أسود بعباءة زرقاء فأضفى على المكان نوعا من الرهبة والالتزام وأقرأ التلاميذ شيئا من القرآن الكريم ولم يكن تيام فصيحا بل كانت العجمة تخالط لسانه والتلاميذ يرددون بعده الآيات القرآنية بنفس الرطانة والعجمة فلا أصل لحرف الحاء في البسملة إطلاقا، ثم نابه عثمان في تلقين التلاميذ وينادونه (أوسمان) بضم الهمزة وتفخيم ألف المد وهو تلميذ شاب في حوالي السابعة عشرة من العمر لا يفقه سوى اللغة الأولوفية بخلاف بقية التلاميذ الذين يحسنون اللغة الفرنسية ولكنه يحفظ جزءا من القرآن الكريم مشافهة وكان همه الوحيد أن يتعلم العربية ووعدته بالمساعدة في فهمها وإتقانها.

وفعلا قطعت معه شوطا فعلمته مبادئ العربية بعسر وصعوبة وكان يقضي وقته منكبا على الأوراق التي أكتبها له ويثابر على قراءتها من أجل الوصول لإتقان اللغة العربية ولم يجد مقابلا سوى أن يعلمني بدوره اللغة الأولوفية وهو يسترضيني بكل وسيلة لأواصل معه المسيرة.

ودعاني عثمان ذات يوم إلى البيت فأدخلني غرفته، وصعقت عندما وجدنا أخته آوه تغير ثيابها وقد نزعت قميصها وكانت عارية النهدين وصافحتني وهي ثابتة على حالها دون حرج فالتهبت أحشائي من الشبق وكدت أنفجر من حرارة الموقف الذي لا يقاوم ولا يطاق فهو فتنة لمن يفتتن.

دخل تيام غرفته ليقرأ أورادا صوفية مطولة لا تنتهي في ذهول وخشوع وهو متمدد على السرير تاركا عثمان مع التلاميذ.

أما أنا فكنت أقبع على صخرة مصقولة على مدخل البيت يجلس عليها تيام عادة مشرفا على تلاميذه وبيدي أجندة صغيرة أحفظ منها ما كتبته في ظرف يومين عن تيام وعن عثمان من ألفاظ وعبارات بالأولوفية وأجرب ما حفظته مع بعض التلاميذ وأسر حين أتواصل معهم بلغتهم بواسطة تلك الألفاظ القليلة والعبارات الوجيزة التي سجلتها وأتقنت النطق بها.

وفجأة يطل عمر لاي قادما عبر طريق مسجد واكام القريب من منـزل تيام، أقبل يمشي هذه المرة متئدا كغريب مشبوه فخطاه ثقيلة والتفاتاته غريبة وكأنه يبحث عن شخص هنا أو هناك.. انتظرته حتى وصل فصافحني وصافح عثمان وسألني في هدوء وسمت مريب:

هل تيام موجود؟.

قلت: نعم إنه داخل البيت مستغرق في الصلاة وتلاوة الأوراد.

قال: ألا نتمشى قليلا ثم نعود ريثما ينهي تيام صلاته وأوراده؟

قلت: بلى هيا بنا.

وما أن سرنا بعض الخطوات حتى سألني بطريقة مباشرة قائلا: هل جاءت سيرابا هذا اليوم؟

قلت: كلا لم تأتي.

قال: إنها طالبة في الجامعة وهي غير متزوجة.

ومع أن كلامه كان واضحا إلا أنني لم أتبين من فحواه النية التامة في الارتباط بها مستقبلا، وخيل إلي أنه عقد النية في ذلك فهي جديرة بأن يطمع فيها كل من كانت له رغبة في الزواج.

وفجأة حول الكلام عن الموضوع.. وسألني عن لقائي بالشيخ.

فقلت: إننا وجدناه غائبا فلم يتسن لنا اللقاء به.

وبعد أن طوفنا بأزقة واكام الضيقة عدنا إلى الحي معا فاستقبله تيام هذه المرة بفتور ظاهر فلم يرحب به كثيرا ولم يطل بينهما المكوث وأولت ذلك إلى كون تيام متعبا ومرهقا من جراء السهر والذكر والتلاوة.

وشيعت عمر لاي وهو يغادر الحي إلى أن أوصلته إلى الشارع الرئيسي لواكام، وقد لاحظت عليه بعض الانقباض بعد مقابلته لتيام ولكنه لم يفصح عن شيء فودعني وأخبرني بلهجة متأثرة بأنه سيزور بين الحين والآخر لمعرفة نتيجة لقائي مع الشيخ الأكبر.

لم نذهب في ذلك اليوم إلى الزاوية وقد لاحظت الإرهاق والتعب على تيام ولكنه كرر لي بأنه سيضرب لي موعدا مع الشيخ في الأيام القادمة.

وعند منتصف النهار وقد اشتدت الهاجرة تجمعت نسوة الحي تحت شجرة الصنوبر الضخمة التي تظلل مدخل منـزل تيام ثم خرج تيام عليهن يحمل لوازم الشاي وجلس على العتبة الإسمنتية واضعا الأحقاق والأواني والكؤوس جانبا ثم أشعل موقد النار وبدأ يعد لهن الشاي وعيون النسوة المتوجهة إليه والمتوهجة في آن واحد تترقب وتتابع عملية صب الشاي المترقرق من إناء إلى إناء بفارغ الصبر.

لغط كثير وثرثرة مستمرة وكلهن ينتظرن لحظة توزيع الشاي الذي اعتدن على موعده كل يوم عند الإمام تيام، ولكن تيام كان يتأنى كثيرا في طبخه وخلطه، فيعيد إبريق الشاي إلى الموقد بعد فترة من خلطه ثم ينحيه ويتذوقه ثم يعيده حتى ينفذ صبر

النسوة، وفي الأخير يوزع أكوابه اللذيذة على النساء اللواتي يثرثرن دون انقطاع واحدة تلو الأخرى.

أما أنا فأتناول فنجانا من "نيس كافي" تعده لي ماري كل يوم وقد أوصاها تيام بذلك وكان الحديث يجري مستمرا بينه وبين النسوة وأنا لا أفهم شيئا مما يخوض فيه معهن ويبدو أنه مجرد هرف وهرطقة لتزجية الوقت.

لم تكن النساء هادئات في حركاتهن وكلامهن فأكثرهن شرسات شراسة الغاب، إذ يخاطبن بعضهن بعضا في حدة وعنف، وقد توكز إحداهن الأخرى على الرغم من حضور تيام الذي كان يشبه في تعامله معهن مروض النمور المتوحشة والمتبرمة بنظرته الحديدية وهيبته ومرونته أيضا فلا تلبث الواحدة منهن إلا أن ترتد عن نفسها وقد انكسرت حدتها وتهدأ إلى حين لتعود سيرتها الأولى.

تجرأت واحدة منهن وسألتني عن اسمي وعن بلدي والغريب أن جميعهن إلا القليلات منهن يحسن الخطاب باللغة الفرنسية، وقد ألفن وجودي في الحي واندمجن معي تماما بمرور الأيام.

كنت أقوم بجولات مع تيام في أحياء واكام فيعرفني بأصدقائه واحدا واحدا ومن بينهم ذلك الرجل المشعوذ الذي زرناه في بيته وقد قال عنه تيام:

إنه طبيب ماهر يداوي المرضى بالأعشاب ويستخدم الجن والعفاريت.

فقلت: هل يملك القدرة فعلا على تسخير الجن والعفاريت؟

قال: ليس في ذلك شك إن لدي حزاما وستراه عندما نعود إلى البيت وقد صنعه لي هذا الرجل الحكيم ولا يصيبني سوء إذا تمنطقت به أبدا، فلو أراد أحد مثلا أن يطعنني بخنجر من الخلف فإن يده تتوقف في الهواء قبل أن يصل الخنجر إلى جسدي، هكذا قال في قناعة وإيمان.

شعرت بالقرف وأنا في بيت هذا الرجل المشعوذ الذي يجله تيام ويؤمن بأفعاله وأنا أراه يمزج العقاقير ويصنع منها لدائن تشمئز منها النفوس وأرى حوله الزواحف والطيور وهياكل الحيوانات الميتة.

وبعد خروجنا من عنده وقد تكدر مزاجي تماما..

قلت لتيام: أنا لا أصدق هذه الأمور وأمقتها فهي مجرد شعوذة وافتراء وقد ورد في هذا العمل حديث شريف يقول: (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد)، فاهتز تيام وجلا وكأن صدمة عنيفة قد أصابته.

لم يكن تيام متضلعا في الفقه والدين بل كان تدينه خليطا من البدع والخرافات فأنا ألاحظ عليه كل صباح الإرهاق واصفرار

اللون وهو يسهر الليالي الطوال في الركوع والسجود وتلاوة الأوراد..

ولم يستفق من صدمته الأولى حتى أضفت قائلا:

اعلم يا صديقي تيام بأن الكتب التي تقرؤها هي من صنع اليهود، فاهتز مرة أخرى وتوقف عن السير قائلا في احتجاج:

أأنت تقول هذا الكلام؟

وكنت قد رتبت نفسي لردة فعله هذه..

فقلت: أمهلني دعني أبين لك..

إن اليهود يريدون للمسلم أن يقضي ليله ساهرا، فيصلي مئات الركعات لينال قصورا من الياقوت والزبرجد في الجنة ويحظى بحور العين وما شاء من الجنات والنعيم، فإذا أحيا المسلم ليله بهذه الصورة فإنه يعجز عن أداء واجبه في النهار فلو انجر المسلمون جميعا إلى هذا الطريق الخادع فإنهم حينئذ يظلون كسالى خاملين عن العمل بينما غيرهم يشيد ويصنع ويخترع فيتقدم في الصناعة ويطور معارفه، فالعقيدة الصحيحة لا تدعو إلى هذا أبدا.

كان هذا الكلام غريبا عليه كل الغرابة وواصلت الحديث معه في هذا الشأن واستحضرت كل ما لدي في الموضوع من أدلة وبراهين وشواهد..

فعلت معه ذلك إشفاقا عليه من أعمال وطقوس شاقة يقوم بها ليلا ونهارا ترهقه وتضنيه من دون طائل.

كان تيام يستمع إلي صامتا ولا يرد وإنما أحسست بأن كلامي ينـزل عليه كالصواعق التي تفجر في أعماقه الأكلاس العتيقة، فامتقع لونه وتغيرت سحنته وأدركت بأنني لم أعرف من أين تؤكل الكتف حين صببت له تلك الآراء دفعة واحدة فتوقفت عن الكلام بعد أن سبق السيف العذل، وقد اقتربنا من المنـزل فاشتغل تيام بالحديث مع عثمان وانتهزت الفرصة للانسحاب.

كنت أخرج ليلا بعد العشاء وحدي وأسير في شوارع واكام ولا أعود إلا في وقت متأخر وقد ولعت بالسهر في الأعراس التي تقام كل ليلة في الأحياء الشعبية بمناسبة وبغير مناسبة.

هكذا كانت ليالي الزنوج أعراسا ورقصا وغناء على نسق واحد تقريبا بحيث تغني جوقة من النساء على نمط معين من التصفيق غناء جماعيا بحناجر صافية وقد اشتهر السود بصفاء الحنجرة وتدق الطبول دقا عاليا فتسمع من مكان بعيد، ومجموعة أخرى تؤدي رقصات إفريقية وسط الحلقة.. رقصات فيها كثير من الهول والجنون والرغبة.

وأحيانا أخرى أسهر في بعض الحفلات الدينية التي تقصد فيها القصائد الدينية ولكنني لا أكاد أتبين كلماتها إلا قليلا على الرغم من أن القصائد من التراث العربي القديم كقصيدة طلع

البدر علينا، أو قصيدة البردة وغيرها من القصائد نظرا للعجمة وعدم القدرة على الإفصاح باللغة العربية.

كما أنني أجد المتعة في تلك الحفلات العصرية التي تستعمل فيها الآلات الموسيقية الحديثة، فيرقص الفتيان والفتيات معا رقصات أوروبية فيها الكثير أيضا من الإغراء والجنس والتلامس الجسدي.

كان هذا ديدني كل ليلة فأعود متأخرا لأجد نساء الحي في انتظاري لمواصلة السهر معي في ساحة الحي المظلم إلا من أشعة لمصابيح خافتة تنبعث واهنة من نوافذ المنازل في ذلك الحي القصديري الفقير، ولطالما حذرتني النسوة من الخروج ليلا وأنا لا أبالي بتحذيرهن لعلمي بما يفكرن فيه وبما تنطوي عليه سرائرهن من قصد.

هكذا كانت تمر الأيام والليالي وأنا أوغل في أعماق هذا البلد الإفريقي وفي فسيفسائه البسيطة التي شكلتها أيادي البدء ورسمت الحضارة الحديثة على ملامحه العذراء خطوطا وألوانا أخرى.. ألتحم معه بوجداني.. أوغل في صميم بساطته الجذابة وسره اللامتناهي.. وأتمادى في حبه.. وألج منخرطا في سواده في كنهه الذي يحملني إلى البدايات الأولى.

سيرابا كانت لا تأتي إلا لـماما لتضع نقطة أو حرفا في نص لم تكتمل سطوره بعد..

وذات ليلة دعاني تيام لزيارتها إلى البيت فشعرت بأن قلبي يثب من بين جوانحي واستبدت بي فرحة غامرة هزت كياني كله.

كان بيتها محاطا بسور من الأشجار الشائكة والأغصان الملتفة فتشكل منها فناء طبيعي واسع يضم بيت سيرابا الأنيق الذي يختلف عن البيوتات الأخرى وقد بني بطريقة هندسية فرنسية.

استقبلتنا سيرابا بحفاوة بالغة وأدخلتنا غرفتها الخاصة وأعدت لنا الشاي ثم جلست معنا وقد كانت قبل مجيئنا تستمع إلى بعض الأشرطة الغنائية الفرنسية ولأول مرة أراها في ثوب قصير جدا وألبسة شفافة.

أثارت سيرابا في نفسي الإحساس بالشبق وربما كانت تعرف أنها تفجر عواطفي وتثيرني غير أنها تتجاهل وتحاول أن تبدو طبيعية جدا أمامي.

تحدثت سيرابا مع تيام كثيرا وأنا كالعادة لا أفهم شيئا مما يدور بينهما.. ثم غادرنا البيت وقد اشتعلت في نفسي نيران لا ينطفئ أوارها حتى كدت أن أصارح تيام بأنني متعلق بها ولكنني آثرت أن أكتم هذا الأمر في نفسي ولم أشأ أن أتسرع أو أستعجل وأنا لازلت أشق طريقي المجهول.

وبينما نحن عائدان في تلك الليلة إلى البيت صارحني تيام بما يكنه لعمر لاي من كره ومقت قائلا لي:

حذار من عمر لاي إنه إنسان سيئ وأنا لا أحب لقاءه.

وتكتم تيام عن السر ولم يصارحني بسبب كرهه ومقته له ولم أنبش عن السبب ولذت بالصمت لأنني أحسست بأنه لا يريد الإفصاح.

وفي إحدى الأمسيات أقبل عمر لاي فوجدني جالسا في جماعة من أفراد الحي فصافح الجميع وسألني عن تيام فقلت له: لقد خرج قبل حين في مشوار له ولا أدري متى يعود.

وطفقت أتمشى معه ونكبت به في اتجاه لا يمكن أن يلتقي فيه مع تيام وأثناء سيرنا قال لي:

سأخبرك بموضوع مهم لكن ينبغي أن يبقى سرا بيننا ولا تحدث به تيام.

قلت: سيبقى هذا السر محفوظا في صدري إلى الأبد.

قال: ما رأيك لو تقدمت لخطبة سيرابا فإنني نويت أن أطلب يدها وقد فكرت كثيرا في الموضوع فوجدت نفسي أميل إليها ولا يمكن أن أستغني عنها؟

قلت في غصة: إنها امرأة رائعة فإن وافقت فأنت محظوظ جدا.

قال: سأعود في الغد وأحاول أن أتصل بها لأطرح عليها الموضوع.

أحسست إثر سماعي لهذا الخبر بأن شيئا مؤلما يصعد من أعماقي ويجثم على صدري ولعنت حظي الذي حرمني من أجمل أيقونة أستمتع بها أثناء حياتي هنا.

ولكن ترى هل توافق سيرابا أم أنها سوف ترفض الخطبة؟

فكرت في هذا الزواج وتبين لي أن هناك فوارق جذرية بينهما فهي امرأة متفتحة تنـزع نزعة عصرية أوروبية بينما عمر لاي رجل صوفي متزمت ولا علاقة له بالعصرنة ولا شك أن سيرابا ستشعر بهذا الفارق بينهما ولا أعتقد أنها سوف تضحي بأحلامها مقابل فرصة للزواج فاشلة كهذه.

وعاد عمر لاي في مساء اليوم التالي إلى الحي مشرق الوجه هذه المرة وناداني من بعيد ثم أخبرني بأن سيرابا لا تمانع في الزواج منه وستعطيه الكلمة الفاصلة في ظرف يومين أو ثلاثة أيام.

ومرة أخرى دهاني ذلك الشعور الداعس والمؤلم، وكتمت زفرة لم أتمكن من تصعيدها.

ترى على أي أساس وافقت سيرابا على الخطبة؟ أم أن الزواج بالنسبة للمرأة يمثل المستقبل الهارب؟ أم أنه عند هؤلاء الزنوج ليس إلا أمرا بسيطا ولا يمثل أدنى إشكالية بالنسبة إليهم؟

مالي أصبحت أفكر بهذه الصورة اللامنطقية؟ ألا توجد هناك فتاة أفضل منها تعوضها؟ ربما تكون مشاعري قد انسابت

نحوها لسبب أو لآخر، وإذن.. لا بد أن أستفيق ولا أضفي عليها هالة أكبر من حجمها وستبقى في نظري مجرد امرأة دافئة تسكنها شهامة الرجال ليس إلا.. وأعتقد أنها سوف تتزوج من عمر لاي ولا بد أن أتناساها كما تناسيت كل الجراح فأطوي صفحتها إلى الأبد وأعرض عن التفكير فيها مطلقا.

وذات يوم ضرب لي تيام موعدا مع الشيخ الأكبر فركبنا حافلة النقل وكانت ماري معنا واتجهنا إلى منج ووجدنا الزاوية تكتظ بالأتباع الذين جاءوا من مناطق نائية للتجمع الكبير في يوم غد الخميس إنه يوم مشهود تقام فيه مأدبة عظيمة، ويقابل الشيخ فيه أتباعه جميعا فيعظهم ويرشدهم ويقضي حوائج المعوزين والفقراء منهم بما لديه من تفويض وسلطة في البلد.

وأذن الشيخ المعظم بمقابلتي ودخلت من البهو المزين بالزجاج الملون المجلوب من الخارج عبر باب ضخم مصنوع من خشب الأبنوس الأسود والمنقوش بزخرفة عربية ذات طابع إسلامي إلى قاعة واسعة، وكم راقني ذلك الديكور الذي تناسقت فيه اللمسات العربية الإسلامية والإفريقية والأوروبية.

هالني ما رأيت داخل القاعة من مظاهر الأبهة، حيث كانت مكيفة تتماوج فيها رائحة العطور الزكية وقد فرشت بالزرابي والنمارق الفاخرة وزينت جدرانها ببعض التحف والمذهبات والسجادات الملونة والصور الأثرية، وبعد أن سرنا بضع

خطوات عرج بي تيام نحو اليسار فقابلني الشيخ الأكبر جالسا على أريكة فخمة وفي يده عصا ملوكية، ولكنه استقبلني بحفاوة بالغة وتواضع جم، وكان رجلا في حوالي الخمسين من عمره حليق الذقن يرتدي جلبابا من الحرير الأصفر المطرز وآثار النعمة والأبهة بادية عليه وببيان عربي وفصاحة لم أتوقعها خاطبني قائلا:

أنت ضيفنا ونتمنى أن تكون إقامتك طيبة عندنا.

قلت: إنه شرف لي أن أكون بينكم وأن أجد هذه الحظوة الكبيرة عندكم.

قال: إذا احتجت إلى شيء فلا تتردد أبدا في طلبه، وتدخل تيام في هذه اللحظة قائلا للشيخ: سيدي لقد سألته عن كلمة الجفلى فعرفها واستشهد ببيت من الشعر.

وأراد تيام أن يقرأه فلم يسعفه الموقف فقرأه الشيخ نفسه بنبرة عربية جليلة.

ثم شرحت له وضعيتي وحاجتي الآن للعمل وذكرت له مؤهلاتي العلمية فوعدني بتسوية وضعيتي واقترح علي مبدئيا أن أقوم بتدريس الأطفال في منطقة قريبة من داكار.. فوافقت على الفور.

أدركت من خلال حديثه أنه رجل مثقف فعلا ثقافة واسعة وأنه متمكن من ناصية اللغة العربية ولم يخل حديثه أثناء الحوار معي من بعض العبارات بالفرنسية.

خرجت من عنده شاكرا إياه على المساعدة ورافقني تيام إلى الباب ليتأخر بعض الوقت مع الشيخ.

بتنا تلك الليلة في زاوية الشيخ الأكبر في غرفة خصصت لبعض أهله وأقاربه الزائرين.. أما مريم أو ماري كما كان يناديها تيام ويناديها الجميع في الزاوية فقد اختلطت بالنساء والخدم تشتغل معهن في المطبخ وفي غسل الأواني وهي كعادتها صامتة لا تتكلم إلا قليلا على الرغم من بعض الحيوية التي تنتابها أثناء وجودها في الزاوية دائما، إذ يذهب عنها ذلك الفتور الذي يلازمها في البيت حتى لتكاد ترى فيه كشبح صامت يطوف في فنائه أو بين غرفتيه الضيقتين.

وراقني كثيرا ذلك الجو الاحتفالي في الزاوية، واكتشفت أن هناك أشخاصا مسيحين ومسيحيات من بين الخدم يشتغلون عند الشيخ في الزاوية ولا يكاد المرء يفرق بين المسلمين والمسيحيين في الزاوية، فهم يتعاملون مع بعضهم بعضا في وئام تام ويشتركون في الأعمال متآزرين تجمعهم عادات وتقاليد واحدة.

وفي الغد غصت الزاوية بالوافدين من كل مكان رجالا ونساء وأقيمت الوليمة في الغداء أرز ولحم هذه المرة، وأكل الناس بنهم وشراهة.

وفي المساء بدأ الاستعداد لظهور الشيخ ومقابلته لأتباعه وتحفزت الوفود المتزاحمة، ونصبت للشيخ أريكة فخمة في الفناء الخلفي الواسع الذي فرشت أرضيته بالزرابي وأشعلت فيه المصابيح الملونة.

ثم خرج الشيخ الجليل على الجموع الغفيرة، يرتدي حلة صفراء مطرزة ويضع على رأسه عمامة تشبه عمائم ملوك الهند القدامى، ومشى يشق الجموع في موكب حافل من الأتباع وهم يرددون من حوله أرجوزة تائية في مدحه ومدح أجداده بأصوات زنجية صافية ووتيرة واحدة من التصفيق.

جلس الشيخ على الأريكة في وقار، وفيض من الإشراق على محياه يسطع على قلوب الأتباع فيزدادون نشوة وابتهاجا بالنظر إليه وقد اهتز المكان احتفالا في جو من الروعة والابتسامات والتصفيقات الحارة.

ثم جلس الجميع بعد تمام القصيدة وساد سكون مطبق واشرأبت الأعناق إليه منتظرة وحي كلماته.

أخذ تيام مجلسه إلى جانبه، وبدأ الشيخ بالحمد والثناء على الله عز وجل والصلاة والتسليم على النبي الكريم، وأشار الشيخ في البدء بأن كلمته تتمحور حول معنى كلمة (التقوى).

كان الشيخ فصيحا بليغا جهبذا في اللغة يتكلم بتلقائية تامة دون أن يمسك بورقة أو كتاب.

دام تفسيره لهذه الكلمة أكثر من ساعة وهو يفسر ويستشهد باللطائف والعبر الدينية والصوفية ويضرب الأمثلة غائصا في أعماق النفس الإنسانية موغلا في شرح سنن الكون وكان شرحه آسرا لألباب الحاضرين.

أما تيام فكان يترجم له ترجمة فورية من العربية إلى الأولوفية علما بأن الشيخ كان من عادته أن يلقي كلمته بالأولوفية ولكنه ألقاها هذه المرة بالعربية حتى أتمكن من الفهم وأعددت ذلك تقديرا لي منه وقد أكد لي تيام ذلك فيما بعد فأكبرته في نفسي، وقد نلت هذه الحظوة الكبيرة منه في فترة قصيرة.

صلى الشيخ بالحضور صلاة المغرب والعشاء، وأثناء السهرة امتزج بأتباعه في تواضع جم وتقدمت شخصيات من شيوخ القبائل ووجهاء البلد إلى الميكروفون وطرحوا مسائل كثيرة لم أفهم فحواها.

ثم عاد الشيخ إلى بيته تحت أنغام الأرجوزة السابقة والكل يصفق ويهتز فرحا وابتهاجا، وكانت لحظات باهرة فعلا حيث

صهر الحب والفرح تلك الأعداد الغفيرة التي تموج، وعلت وجوههم ابتسامات وإشراقات صوفية ساطعة.

أما سيرابا فمنذ لقائها بعمر لاي واتفاقهما على الزواج وأنا أحس بأن سلوكاتها تغيرت فكانت تظهر باستمرار في الحي وقد ازدادت شموخا وعنفوانا ولم تنقطع عن زيارة تيام وكان عمر لاي يزورها في البيت دون أن يعرج على تيام.

ولا أدري كيف صارت سيرابا بهذا الزواج أقرب إلي رغم أني قررت أن أتناساها.. إنه ميل غريب وسر غاب عني تماما.. ربما هي نزعة نفسية خفية فهي تستقبلني بحفاوة وأتجول معها في الحي والحي لا يحفل بنا وأزورها في البيت وترافقني إلى السينما وانفتح المجال بيني وبينها على مصراعيه فبحت لها بميلي إليها وكيف أنها تبهرني وكيف كنت أشتاق إليها أتغزل بها ألامس جسدها الإسفنجي أحيانا عن قصد فأشعر بحرارته بل أنهب منها القبلات حين نخلو كانت تقدر هذا الإعجاب وهذا الميل وهي لا تمانع، ولكنها لا تمكنني من كل شيء واكتفيت منها بذلك وعاد إلي العنفوان من جديد وتجاوزت فكرة الخيانة تحت تأثير أسرها وجاذبيتها..

كان لدي المجال الواسع للانطلاق في ذلك الجو السائد هناك الذي لا تتعقد فيه العلاقات بين المرأة والرجل، حيث أشعر بالروحة في العودة إلى البدايات الأولى لما كان الإنسان أنثى

وذكرا يتعاملون بالفطرة وعلى السجية، وما أروع المجتمع حين يكون للطبيعة دور في سلوكات الأفراد والجماعات!.

تأكدت من مواقف كثيرة أن سيرابا لا تنطلق مع عمر لاي كما تنطلق معي، وشعرت وكأنها تعامله كغريب أو بالأحرى كشخص أدنى منها فهي حادة وصارمة معه، ولا أدري بالضبط لماذا تعامله بهذه الطريقة وقد فاتحتها في الموضوع ولم تفصح عن شيء.

تم الزواج بين سيرابا وعمر لاي في عرس متواضع أقيم في بيت العروسة.. أما تيام فقد اعتذر عن الحضور للعرس متعللا بأنه يشعر بوعكة في بطنه.

أخذ عمر لاي سيرابا إلى بيت اكتراه في أحياء واكام بعد أيام من زواجه وأقام فيه مع سيرابا وكان يدعوني أحيانا للبيت فأستجيب، أما سيرابا فإنها لا تكاد تنقطع عن زيارة أمها وزيارة أهل الحي وهي تشعر بالفرح حين أزور عمر لاي في البيت، ووجدت الفرصة في التردد إليها بل كنت أنتهب اللحظات عندما لا أجده هناك فأضمها وأقبلها دون أن أمكث طويلا، وقد صارت كبوتقة خمر معتق أدمن عليها ولا أستطيع السلو عنها.

أما عمر لاي فكان يغيب خلال النهار، ولا يأتي إلا في آخر المساء وعلى الرغم من ترفعها عليه وصرامتها معه إلا أنها لم

تستطع أن تلوي شكيمته أو تخضعه لإرادتها، وقد باحت لي ذات يوم بأنها لم توفق في الزواج وهي تشعر بفتور العلاقة مع عمر لاي الذي يستقل بحياته خارج البيت، فلا يشاركها في كبيرة أو صغيرة ولم تخفي عني سأمها وقلقها المتزايد يوما بعد يوم..

سيرابا نفسها كانت غامضة فهي أحيانا قوية وأحيانا ضعيفة تبكي أمامي وهي تحكي عن تعاستها وشقائها مع عمر لاي الذي أظهر في البداية ميلا كبيرا نحوها ثم صار يتخلى عنها فهو ينسحب في صمت ليمارس طقوسا خاصة به خارج البيت ربما لا تتوافق مع طبيعة سيرابا التي تنزع للانفتاح والتحرر المطلق.

ترى هل أن بكاءها ينم عن تمسكها في رغبة خفية بهذا الزواج أم أنه بكاء على حظها العاثر حين تورطت معه في الزواج؟ كنت أهدئ من ثورتها حين تزمع أحيانا على الانفصال لتعيش متحررة من كل قيد.

وغالبا ما أصادف عمر لاي في البيت عند زيارته، فأسهر الليل معه وتسهر معنا سيرابا وأعود في وقت متأخر إلى الحي فأجد نساءه في انتظاري ولا شغل لهن إلا السمر ليلا فيحاولن أن يعرفن أين كنت فأردد دوما نفس العبارة: كنت في حفل مقام في أحد الأحياء، فلا يزلن يكررن لي خطر الخروج ليلا في (واكام) وكانت كل واحدة تتودد إلي وتنتظر الخلوة معي ليلا غير أن الواحدة منهن لا تتيح الفرصة للأخرى.

أحس تماما وأدرك لوعة الشبق والجنس تضطرم فيهن غير أن حراستهن لبعضهن بعضا كانت مشددة، فيسهرن معي جميعا حتى يوشك الصباح على السفور فأتوجه إلى غرفتي وأنام دون أن أنال وطرا من واحدة منهن إلا أحيانا عندما يسيطر ملك النعاس على الجميع في بعض الليالي فأشبع رغبتي الجانحة من واحدة لم تيأس من فرصة سانحة.

كان الشيخ الأكبر يشد الرحال بين الحين والآخر إلى ضيعته المترامية الأطراف التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتر من داكار فيجهز سياراته الأربع من نوع الأندروفير ويقوم بجولة هناك فيقضي يوما كاملا مع أفراد أسرته ومع مجموعة من الأتباع وخدم الزاوية، فيذبح خروفا ويقضي الجميع هناك يوما من أروع الأيام في ذلك البيت الذي يشرف عليه بعض الفلاحين العاملين في المزرعة التي تشمل مساحة واسعة.

يتجول الشيخ بسيارته في أرجاء المزرعة، فيتصل بالفلاحين الذين يجمعون الغلال ويصلحون الأراضي.. أما النساء فإن بعضهن يشتغلن بالطبخ وبعضهن يخرجن مع زوجة الشيخ للتفسح في طرف من أطراف المزرعة الواسعة الأطراف.. أما فيرولين فهي فتاة مسيحية غليظة الشفتين ثخينة الجسم فلا تكاد تفارق المطبخ أبدا تساعدها فيه فتاتان زينبو، وفاتولاي وكذلك ماري التي كانت فيما مضى إحدى زوجات الشيخ الأكبر

وتزوجها تيام فيما بعد ويعتبر تيام أن ذلك تكريم له من الشيخ الأكبر حيث قال لي ذات مرة:

لقد أكرمني بها الشيخ.

بعد أن يقضي الجميع يوما كاملا في المزرعة بين الخضرة وتدفق المياه يعودون في المساء في غمرة من النشوة والابتهاج محملين ببعض الثمار كالمنج والكولا والجوز الهندي وبعض الخضر والتوابل.

أصبحت مدرسا أعلم الصغار اللغة العربية في ضاحية من ضواحي داكار وقد منحني الشيخ منـزلا من أوقاف الزاوية ومرتبا بألف فرنك فرنسي قديم ولطالما كنت سعيدا مع أولئك الصغار الذين يمرحون ويسقسقون كالعصافير، ولاسيما وأنا أوزع عليهم قطع الحلوى لما أعود من العاصمة داكار.

زرت عمر لاي ذات ليلة فلم أجده فمكثت أنتظره في البيت لأسهر معه وتحدثت مع سيرابا في تلك الليلة مطولا وحاولت أن أخرج فألحت علي بالبقاء حتى يأتي عمر ولكن عمر تأخر كثيرا.

كانت سيرابا ترتدي شملة بيضاء تشف عن أثدائها وعن أجزاء مثيرة من جسمها الممتلئ.. تعاقب الليل وجاء الغلس.. مضى معظم الليل... وعمر لم يأت.. تمددت على الكنبة فلم يأتني النوم إلا لماما.

أحسست أن سيرابا تتقدم مني تفتح عن صدرها وتميل علي بالقبلات وتضمني إليها ضما قويا متعطشة شبقة وهي ثائرة كاللبؤة.. طرقات الباب تزداد وتتواصل.. لم تفلتني سيرابا.. حاولت الانفلات من هذا الكابوس ولكن لم أتمكن من شدة صولتها وفجأة نهضت مملأ ذعرا سبقتني سيرابا إلى الباب ودخل عمر لاي فجرا فوجدني جالسا على الكنبة أسترد أنفاسي.. أخبرته بأنني أغفيت قليلا فرأيت حلما مزعجا.. كان عمر منقبض النفس فلم يلبث أن استبدل ثيابه ودخل غرفة نومه في حالة من الصدود وعدم الرضى.

خرجت من بيت عمر لاي يغشاني القلق والندم عن هذا الخطأ الفادح وعدت إلى الحي الذي خيم عليه الهمود والسكون والحر الخانق.. كل شيء كان نائما ماعدا قطط الحي التي تنهش بقايا السمك المرمية هنا وهناك وبعض الكلاب الضالة التي تشمشم الأرض وتطوف بأزقة الحي جيئة وذهابا.. ومررت على المسجد فوجدت عثمان قابعا كالتمثال وقد جاء مبكرا لصلاة الفجر.. وفي هذه الأثناء صاح ديك من منزل قريب وقد تزامن مع صوت الآذان، فتذكرة قصة يهوذا تلميذ المسيح الذي خانه فأسلمه لليهود وأسلمه هؤلاء بدورهم إلى بلاطس البنطي حاكم الرومان الذي أمر الجيش بصلبه.. وندمت ندما على تلك

الليلة كما ندم يهوذا الأسخريوطي على خيانته الكبرى للمسيح فمات منتحرا وقد خنق نفسه.

انقطع عمر لاي تماما عن المجيء للحي والتقيت بسيرابا ذات يوم وقد جاءت لزيارة أمها فأخبرتني بأن عمر لاي ينوي الذهاب إلى إيطاليا من أجل العمل ثم قالت في غصة:

لقد تغير منذ تلك الليلة التي وجدك فيها في البيت وازداد جفاء وبعدا مني.. ولا أدري ما المصير ما دام يعاملني بهذا الجفاء وهذه القسوة.

قلت: كان خطأ منا أن نفعل ذلك ويحز في نفسي أن تسوء العلاقة بينك وبينه وأن أكون سببا في الانفصال بينكما.

قالت في نبرة محزونة: لا يهمني أمره لا تفكر به إطلاقا.

ظلت العلاقة وطيدة بيني وبين تيام فأنا أزوره في معظم الأيام فضلا عن لقائي به يومي الخميس والجمعة في زاوية الشيخ لحضور التجمع الأسبوعي.. أما ماري فكانت تكن لي كل الاحترام والتقدير على الرغم من صعوبة التواصل معها إذ كانت لا تتكلم إلا الأولوفية وبعض الكلمات القليلة من الفرنسية التي لا تمكنها من التعبير عن أفكارها غير أنها كانت تنبسط حين تراني بل إن بسماتها المريبة أثارت الشك في نفسي إذ ربما كانت تعلم بسلوكاتي مع نساء الحي وكان هذا الشعور يخجلني لأنني أخشى أن يعلم تيام بتصرفاتي مع النساء فأفقد

ثقته واحترامه ويخيل إلي أحيانا بأنه على دراية بكل صغيرة وكبيرة ويزداد شكي وقلقي حدة لما أرى (ماري) تجلس القرفصاء أحيانا أمام عتبة البيت مع واحدة من نساء الحي المعروفة بالفتنة والشر وهي تبتسم بسمات ليست بريئة.

كنت كلما أمر بالأحياء يشير إلي الصبية قائلين : (توباب، توباب) وتطلق هذه الكلمة على كل أجنبي من غير العرب، لم يصدق أهل الحي بأنني عربي إذ كانوا يعتقدون أنني فرنسي على الرغم من تأكيدي لهم بأنني عربي أصيل ومن الجزائر.. لم يصدقوا إلا عندما طلبت من تيام ذات مرة أن أقرئ تلاميذه السورة القرآنية (اقرأ باسم ربك) المكتوبة على اللوح الأسود المعلق على جذع الشجرة أمام بيت تيام..

أقرأتهم بلسان خال من العجمة وبنبرة مختلفة عما تعودوه من تيام ومن أوسمان فاشرأبت أعناق التلاميذ وهزهم الحماس وخرج الحي عن بكرة أبيه نساء وأطفالا وشبابا حتى الرجال خرجوا يستمعون إلى تلاوتي وتحلق الحي حول التلاميذ والدهشة تغمر وجوه الجميع واستغربوا ذلك الصوت من رجل لم يصدقوا ذات يوم بأنه عربي، وما أن أنهيت السورة حتى علت الأصوات والتصفيقات الحارة واحتفل المكان بالحركة والسرور.

واكتشفت أن أهل السنيغال يحبون العرب حبا منقطع النظير ويحبون الشعب الجزائري على وجه الخصوص وخاصة الكبار منهم لذلك كنت أجد الحفاوة منهم لما أعرفهم بنفسي بل كان بعضهم يعانقني حين يعرفون بأنني جزائري.

تجاذبت الحديث ذات ليلة مع أحد الوافدين إلى الزاوية لحضور التجمع الأسبوعي وهو مدير مدرسة ابتدائية كبير السن أحيل على التقاعد منذ سنوات.. حدثني هذا الرجل عن الجزائر إبان الثورة وسرد لي أحداثا واقعية وذكر لي بعض القادة عميروش، ابن مهيدي، سي الحواس، بن بلة وغيرهم.. ووصف لي البلاد بقعة بقعة، حدثني عن معارك في عهد الثورة بكل دقة وتفصيل، وارتبت في أمره لأن الحقائق التي كان يسردها ليست مؤرخة في الكتب وليست معلنة وكان يحكي في شيء من التحفظ.. لاحظت ذلك في عيونه وفي نبرة صوته الخافت غير أنه كان يريد أن يبوح بكل ما في صدره عن الثورة الجزائرية.

راقني ذلك الانطلاق في السنيغال وأحببت تلك النفوس الطيبة التي تتعامل بتلقائية ودون خلفية، اندمجت كليا مع الرجال والنساء والشباب وحتى الأطفال الذين أدرسهم كانوا ملاذي الدافئ ووجدت نفسي أثيرا بينهم، أعجبتني بساطة الحياة وأحسست بالثقة والأمن.

علمت تلاميذي اللغة والحساب وبعض الدروس الأولية في النحو والصرف وحفظتهم الأشعار وبدأوا يتقنون العربية إلى حد كبير وقد حضر الشيخ بنفسه درسا من الدروس فسره الأمر وشكرني عن المجهود الذي بذلته ووعدني برفع مرتبي.

سافر عمر لاي إلى إيطاليا من أجل العمل تاركا سيرابا عند أمها واعدا إياها بأنه سيعمل من أجل تكوين ثروة هناك ثم يعود.

التقيت به قبل سفره وتمنيت له التوفيق في رحلته وأشار إلي في ذلك اللقاء بأنه ليس على وفاق مع سيرابا، ومر بذهني ما ذكرته لي سيرابا عن أثر تلك الليلة في نفسه تلك الليلة التي وجدني فيها في بيته ثم تركني والشكوك تساورني ولم أستطع أن أدرك مغزى ما يلوح به ولم أتوصل إلى ما يجول في خاطره سيما وقد رأيته يعرض عن النظر إلي أثناء الحديث.. شعرت وكأن نبرة من الحقد الخفي تتخلل كلامه.. ترى هل شك في علاقة جنسية بيني وبين سيرابا منذ تلك الليلة التي ثارت فيها الغرائز السفلية لسيرابا؟

ترى هل هذا هو السر الذي جعله يصرح بعدم الوفاق مع سيرابا؟.

ولكن ألم تقل لي سيرابا بأن العلاقة بينهما ليست على ما يرام قبل تلك الليلة التي وجدني فيها في البيت؟ ألم يحاول قبلها أن

يمنعها من الذهاب إلى بيت تيام دون مبرر فرفضت الانصياع له ونهته عن التدخل في سلوكاتها؟ ربما كان الخلاف بينه وبين تيام أساسه اختلاف الزاويتين اللتين لا تتفقان حيث قال لي تيام قادحا في شيخ زاوية عمر لاي إنه إنسان جاهل وأمي وليس له علم فهو مدع وزنديق.

كانت سيرابا في سنتها الجامعية الرابعة حين كان عمر في إيطاليا، وصادفتها ذات يوم على قارعة الطريق مع رجل فرنسي فهشت في وجهي واستقبلتني في حرارة وقدمت إلي الرجل قائلة:

أقدم لك أستاذي في اللغة الفرنسية وقدمتني إليه قائلة:

هذا جارنا الجزائري الذي كلمتك عنه.

تصافحت معه مصافحة مفتعلة.. هكذا شعرت على الرغم من أنه صنع بسمة على شفاهه ورددت البسمة بمثلها.

كان رجلا كهلا أنيقا يبدو عليه شيء من التزمت والتصلب والقسوة في المعاملة ينقصه دفء الجنوب وحرارة العاطفة.

سألتني سيرابا عن تيام وعن أحواله وعن ماري وهي تبدو في ذلك اليوم في كامل زينتها وأناقتها حيث أرخت شعرها الأسود المتين على كتفيها، وهي من النساء القليلات في السنيغال ممن لهن شعر ناعم وفاحم إذ أن معظم بنات السنيغال شعرهن

أجعد يضفرنه ضفائر صغيرة (تريس) وقد ارتدت فستانا قصيرا وبرز نهداها الكبيران المترجرجان بشكل مثير.

ارتبطت سيرابا بذلك الأستاذ حتى صار يزورها إلى البيت في بعض الأحيان.

صادفتها ذات مرة في محطة الحافلات بداكار وكان المطر ينهمر بقوة وغزارة وجسداهما ملتصقان تماما تحت مطارية يحملها الأستاذ بيد ويده الأخرى محيطة بخصرها وأدركت أن سيرابا اتجهت نحو منعرج آخر.

مرت شهور على سفر عمر لاي ثم بعث برسالة إلى سيرابا يخبرها فيها بأنه لن يعود في هذه المدة القريبة وقد سأل عني في تلك الرسالة وهل أنني لازلت مقيما في السنيغال.

بدأ الحمل يظهر على سيرابا ثم وضعت طفلا ببشرة بيضاء وعيناه زرقاوان وأسمته عيسى..

ترى كيف ولد هذا الطفل بإيهاب أبيض وعينين زرقاوين واستعدت في ذهني تلك الليلة التي قضيتها مع سيرابا في غياب عمر حتى الفجر.. استعدت الشريط من أوله إلى آخره فتخيلت سيرابا عندما كانت في ثورة جنسية عنيفة وقد تجردت من ثوبها الشفاف ولبت رغبة نارية جامحة معي.

ثم انتبهت مفزعا على طرقات الباب.. وتفاجأت بدخول عمر لاي الذي لم يكن في حالة طبيعية ولم يرقه وجودي في البيت أثناء غيابه.

كانت سيرابا تترك طفلها عند أمها لما تخرج لتلتقي بالأستاذ بيير أستاذ الفرنسية حيث اعتادت أن تلتقي معه، وقد رأيته من خصاص الباب ذات مرة يحمل عيسى بين ذراعيه وهو يداعبه قبل خروجه من بيت سيرابا حيث كنت مارا ولم يكن الباب الخارجي موصدا.

مكث عمر لاي في إيطاليا زمنا طويلا ثم عاد من سفره بصورة مفاجئة وأقام مع سيرابا في بيتها وكان مزمعا على العودة إلى إيطاليا بعد شهر.. هذا ما قالته إحداهن في بيت تيام.

واتجهت إلى زيارته بعد قدومه ولم أكن مطمئن البال حيث ترددت كثيرا بين الواجب وتأنيب الضمير.. فتلك الليلة قد لوثت صفاء العلاقة بيني وبينه ومما زاد الطين بلة هذا الولد الأبيض الذي سوف يبقى دليلا شاهدا على الخيانة.

قلت في نفسي سأحاول أن أظهر في صورة البريء الذي لا يشعر بأي إثم.. لا بد من ردع هذا الاضطراب الذي يعتريني..

ترى ما مقدار الصدمة التي حدثت له حين رأى عيسى وكأنه طفل أوروبي؟ وكيف كان موقفه مع سيرابا؟ هل أنه تأكد من الخيانة؟ هل سيقابلني بصورة عادية أم أن نار العداوة المتأججة

في صدره ستجعله يثور في وجهي؟ هل سيبادر بالانتقام فورا أم أنه سوف يكظم غيظه إلى فرصة سانحة للانتقام؟ ولكنني في النهاية حسمت أمري وقررت أن أواجه الموقف.

وإثر ذلك القرار الحاسم شعرت بأن قلبي يتصلب.. يتصلب أكثر.. وتبددت كل الهواجس من نفسي.. بل وجدت رغبة في تحدي الموقف ثم أخذت طريقي إلى بيت سيرابا رابط الجأش ثابت الجنان.

قابلني عمر لاي بزي أوروبي أنيق وقد امتلأ بدنه الذي كان نحيفا وبدت عليه إشراقة طفيفة خيل إلي أنها مفتعلة يتوارى من خلالها حقد أسود، ومع ذلك رحب بي وأدخلني إلى غرفة سيرابا حيث كانت تداعب طفلها على السرير.. وما أن رأتني حتى ارتبكت ومدت يدها إلي تصافحني.. لم تكن منطلقة كعادتها.. ربما لم يرقها مجيئي وشعرت كأن سرا غامضا يعتري الجو أو كأن مشكلة تتلبس المكان.

ضاق صدري وأحسست بالحرج.. وبادرت إلى الطفل فحملته بين ذراعي وداعبته مبتسما له.

واشتغلت سيرابا في هذه الأثناء بترتيب بعض الأثاث.

أما عمر لاي فقد كانت عيناه مسمرتين نحوي وكأنه يقرأ ألف حساب لمداعبة عيسى، وخيل إلي أني أرى قطع الحقد المظلمة تتجمع على سحنته.

وقد ازداد وجهه وجوما وقتامة.. حاولت أن أتلاءم مع هذا الجو المكهرب فلم أرتبك وبذلت قصارى جهدي في أن أبدو طبيعيا جدا.

أمر عمر سيرابا بإحضار الشاي.. فحاولت الاعتذار متعللا بأن لدي حصة لتدريس التلاميذ وهممت بالمغادرة ولكن عمر لاي ألح علي بالبقاء.. فجلست على السرير ثانية، وقد ارتبت حين أخذت سيرابا عيسى ومضت لإحضار الشاي.. ودبت في جسدي كهربة من الشك حين قامت سيرابا بهذه اللقطة المريبة لما سحبت الطفل معها..

سألته عن أحواله في إيطاليا وعن حياته هناك فكان يجيب باقتضاب شديد. ثم أطرق مليا وكأنه يبحث عن كلمات معينة ليبادرني بفكرة تدور في رأسه وتعسر عليه إخراجها وهو يبدو مترددا ثم قال بعد لأي:

إني أحس بانقباض شديد وكنت أود أن أكون سعيدا عند عودتي إلى البلد.

نظرت إليه متصنعا علامات الدهشة والاستغراب وقلت في جسارة لأزيل عنه تردده ولأكشف الفكرة المترجرجة في صدره:

كيف تشعر بذلك وأنت الآن بين أهلك وصار لك طفل يبعث في نفسك البهجة والسرور؟

ازداد عمر وجوما وانقباضا مرة أخرى إثر ذكري للطفل وانتظرت ما ستفصح عنه شفتاه اللتان لاحظت أثناء إطراقه أنهما ترفان من فرط التوتر، ثم رفع رأسه قائلا:

كان هذا الزواج خطأ كبيرا وكان ميلاد هذا الطفل الذي تتحدث عنه الخطأ الأكبر.

وحملق في وجهي بنظرة حادة تنم عن جرح لم ينكأ.. عن جرح في أعماقه تركته تلك الليلة الآثمة في نفسه ليلة الطوفان اللعين..

نعم هذا هو سر ندمه الأكبر (الخيانة) التي أكدها هذا الطفل المشبوه، فعيناه زرقاوان وبشرته بيضاء كأهل الشمال.

وأردت أن أقتلع من نفسه هذا الشك الخطير وهذا الشعور المؤلم فقلت له في لهجة لا تخلو من عذاب الضمير:

ماذا تقول يا عمر؟ ماذا حدث لرأسك؟ إن سيرابا امرأة يندر وجودها وأنت موفور الحظ حين صارت لك زوجا.. أنا لا أدري ما الذي جعلك تفكر بهذا الشكل الغريب..

وفي هذه الأثناء سمعنا وقع أقدام سيرابا في الفناء المبلط وهي قادمة فقال عمر لاي:

سنكمل الحديث في المساء.

وشعرت بأن كلماتي لم تزح عنه ذرة من ذلك الهم الجاثم على صدره، ثم عراني ذلك التصلب في القلب من جديد.. وصرت

أنظر إلى الموضوع وكأنه أمر تافه.. وذهلت نفسي فجأة عن مشاعرها النبيلة وقد أقبلت سيرابا حاملة صينية الشاي، وانحنت لتجذب طاولة صغيرة وأصابتني قشعريرة شبقية حين بدا بياض فخذيها الممتلئين لما انحنت على الطاولة.. ثم وخزني فجأة وازع عميق ودار في نفسي في تلك اللحظة صراع عنيف بين لذع الضمير وحدة الشبق..

ترى هل انهارت في كياني مبادئي الكبرى؟ هل أن سيرابا تأسرني بروحها أم بجسدها الغاوي؟ ترى هل تحطمت في نفسي تلك القيم الريفية الأصيلة التي نشأت عليها؟

أشعر بأنني أخرج من إيهابي وأن كياني يتفاعل ويتغير لونه، ليصبح كيانا آخرا يتماهى مع الخطيئة ومع الخيانة..

ولم تمكث سيرابا معنا إلا قليلا حتى علا صياح طفلها فقامت إليه توا تاركة إيانا وحدنا، وتناولنا الشاي وحدد لي عمر موعدا للقاء في المساء عند الكشك الذي التقينا فيه أول مرة مع سيرابا وقال:

سنكمل الحديث في الموضوع.

خرجت من منزل سيرابا وقد شيعني عمر لاي إلى الباب الخارجي.. سرت وأنا محتار قلق موزع بين أفكار مثالية مجردة وأفكار واقعية تقوم عليها حياة الناس وقلت في نفسي:

أنا أحب سيرابا غصبا عن نفسي ولكن أليس المكوث في بيت عمر لاي حتى الفجر وهو غائب جريمة؟ أما كان ينبغي ألا أدخل أصلا مادام عمر غير موجود فلا أقع في الخطيئة؟.

وفجأة وبنـزعة رومانية راديكالية حادة حسمت هذه العواطف المتصارعة في صدري قبل أن تحفر في نفسي بؤرة واسعة للندم وعزمت ألا أستسلم لأثر الخطأ وهو يمزق سجوف الضمير وعرتني موجة من التمرد العنيف فطردت عن نفسي كل الهواجس.

وقلت في صمت: حتى لو كان عيسى ابني وجاء من صلبي من خلال تلك الليلة الآثمة، فماذا عساني أن أفعل؟.

لا شيء سوى أن أرضخ للأمر الواقع.. لا شيء سوى أن أتسلح بقوة الإعدام النفسي فأقتل هذا الشعور إلى الأبد في أعماقي.. لا شيء أستطيع فعله سوى أن أذهل عن تلك الليلة الآثمة وأضرب صفحا عن التفكير فيها.

أنهيت دروس المساء وأنا لا أود اللقاء مع عمر لاي ومع ذلك اتجهت إلى الكشك متثاقل الخطى وأعددت للشر سلاح اليقظة والحذر.

وصلت إلى الكشك في الموعد المحدد ومضت الدقائق تلو الأخرى ولكن عمر لم يأت.

ترى ما الذي جعله يتأخر وقد كان مصرا على اللقاء؟.

ومالت الشمس نحو المغيب ملطخة وجه السماء بالحمرة الأرجوانية ثم تلبدت سحب داكنة وبدأت الشمس تدخل في كافر وأحسست برذاذ مطر قليل يتساقط على أديم وجهي المنقبض.. وضاقت نفسي وداهمتني أفكار عنيفة فخيل إلي أنني أخوض معركة دامية مع تلك الشرذمة الإرهابية وصمت آذاني بزعاق وهمي وبدوي طلقات رصاص تمزق السمع وكأن الشفق صار يتساقط دما كقطع النار الملتهبة أمام نظري الذاهل.. واختنق المكان وانحبست أنفاسي.. وتيبست أوصالي تماما.. وكأن روحي قد انفصلت عن جسدي الذي داهمته هزة صاعقة.

وعدت إلى الماضي إلى ذكرى ذلك اليوم المشؤوم لما كنت عائدا من وهران في حافلة ذات مساء.. فأوقفتنا جماعة من العناصر الإرهابية في منطقة ولتام القريبة من مدينة بوسعادة.. وقد كمنوا في منعرج من منعرجات الطريق على مرتفع من الجبال المتصلة بجبل كرددة وكانوا حوالي خمسة عشر رهطا مسلحين بالرشاشات واقفين على جانبي المنعرج مشرفين من أعلى على الطريق كالنسور الجارحة المعتصمة بأكتاف الجبل.. وأمر اثنان منهم كانا واقفين في أسفل المنعطف صاحب الحافلة بالانحراف عن الطريق والتوقف في الجهة الأخرى للمرتفع بحيث لا ترى الحافلة للقادمين من بعيد.

أنزل الركاب جميعا.. وانبطح الكل على الأرض بأمر من الشلة الإرهابية.. ليلتها كان المطر ينهمر شآبيب شآبيب ثم تنقطع حينا لتعود زخاته من جديد.. كان أحد الإرهابيين يأخذ على الترتيب الركاب المنبطحين أرضا إلى اثنين آخرين من الإرهابيين هناك في منحدر قريب، ذبح اثنان قبلي وكنت الثالث.. وجاء علي الدور.. وجثمت على ركبتي.. ووضع الإرهابي السفاح الخنجر على رقبتي.. وسألني الإرهابي الآخر الذي كان يحمل رشاشا:

هل انتخبت هذه المرة؟

قلت: إنني لم أنتخب منذ 1991 يوم أن انحرف المسار الانتخابي.

وأومأ الإرهابي إلى صاحبه أن يخلي سبيلي، ورجعت إلى مكاني بالذات غير مصدق وانبطحت على الأرض الصخرية مرتجفا من الفرق والخوف وشدة البرد القارس.

استمر الإرهابيون في ذبح الركاب الواحد تلو الآخر.. وقلما كان يعود إلى مكانه من أخذ إلى هناك.. إلى عدوة الموت..

كنت أسمع غرغرة المذبوح إذ أن الذبح لم يكن إلا على بعد أمتار مني.. كان الإرهابي الذي يحرس الركاب المنبطحين يقف إلى جانبي حاملا رشاشا أوتوماتيكيا.. وهو لا يتجاوز العشرين عاما.. أسفع الوجه.. له لحية شقراء خفيفة فخاطبني قائلا:

نحن مجاهدون في سبيل الله نسعى إلى القضاء على آثار الطاغوت.

قلت: سيعود الحق والعدل على أيديكم بإذن الله ما دمتم صامدين وصادقين في جهادكم.

قال: إننا سوف نطهر البلاد.. سوف نقضي على اللائكيين والشيوعيين والعلمانيين وسنطبق الشريعة الإسلامية العادلة.

قلت: أعانكم الله في سبيل إعلاء كلمة الحق ولسوف ينصر الله من ينصره.

كان هذا الإرهابي الشاب المغرر به يتحدث في طمأنينة وببرودة أعصاب تامة وكأنه يصدر آراءه عن يقين لا يعتريه شك أو ريب.

نهب الإرهابيون كل ما وجدوه من متاع للمسافرين في الحافلة وشاهدت وأنا منبطح إرهابيا ينـزع حذاءه ويلبس حذاء جديدا عثر عليه بين أمتعة الركاب.. وفجأة ينهض أحد المسافرين المنبطحين من مكانه ويحاول الهرب من المذبحة.. ولكن الرصاص لم يمهله فتناوشته القذائف من كل جانب فسقط ميتا غير بعيد.

وانتهت المجزرة بفرار صاحب شاحنة كان قادما من ناحية بن سرور من الإرهابيين في تلك الآونة في سرعة خاطفة حين اخترق الحاجز المزيف وانثال الرصاص مطرا على الشاحنة

ولكن السائق نجا بأعجوبة وقد خاتل الإرهابيين ثم انطلق فجأة بأقصى سرعة.

واختلط الأمر على الإرهابيين فأسرعوا في لم الأمتعة في خفة وسرعة ثم ركبوا سيارتين من نوع طيوطا وصاحوا بأعلى أصواتهم : الله أكبر الله أكبر وأطلقوا موجة من الرصاص في الفضاء واتجهوا نحو جبل بوكحيل.. تاركين وراءهم جثثا معفرة بالدم والتراب وأشباحا قلة كأنهم أموات قاموا من أجداثهم في ذلك العراء الخامد.. ورجفة الموت تئز مع هبات الريح وشآبيب المطر.. بين الآكام والوهاد وركايا الجبال الصخرية.. وشجيرات الشيح والحلفاء المبللة تومض تحت برق خاطف بين الحين والآخر.. وتمتزج رائحة التربة الماطرة المدماة برائحة الشيح تحملها تيارات الريح القارس.

ثم اتجهت هناك لأشرف من علو على منحدر الموت لأرى على ضوء البرق جثثا كثيرة مبعثرة هنا وهناك في منخفض التل وقد تيبس جسدي من جراء صواعق الرعد وشدة البرد والماء المتدفق من السماء بغزارة.. وشعرت بالغثيان وفقدان الوعي.. واستولى علي اللون الأحمر.. فأمطرت السماء دما قانيا.. وفاضت الأودية والشعاب.. وغرقت المرتفعات والمنخفضات بسيول حمراء ساخنة وصمت آذاني طلقات الكلاشينكوف التي رددتها الجبال الجرداء من حولي.. واختلط الماضي بالحاضر وتهت في

أصداء جنونية.. الجريمة.. البراءة.. الخيانة.. الحب.. وارتعاشة الموت تهز أوصالي.

ولم أستفق من هذه الدوامة الغريبة والعنيفة إلا حين اقتربت مني (أمنتا) وهي تحريف لاسم آمنة مبتسمة وأمنتا هي إحدى فتيات الحي طويلة كالزرافة ممشوقة القوام دقيقة الخصر ممتلئة الأرداف والأطراف فتاة بسيطة غنجة صوتها يشبه صوت العنادل.. كنت أراها دوما في الحي فأغازلها ولا أبخل عليها ببعض النقود..

ابتسمت كعادتها وتقدمت مني قائلة:

– مساء الخير، كيف حالك حبيبي؟ وقد أغرتني بصوتها الأنثوي المثير.

– أمنتا، مساء الخير، اشتقت إليك، كم أنا سعيد بهذا اللقاء.

وبعد دردشة سخيفة معها لا هدف لي من ورائها إلا الإثم وممارسة الحب بادرتني قائلة:

– أريد أن أذهب الليلة إلى السينما.

– قلت سنذهب معا.. واتفقنا.

كانت قاعة السينما ملاصقة للحي من الناحية الغربية، أما بيت تيام فيقع في الناحية الشرقية منه.. ذلك البيت الذي أقمت فيه في الأيام الأولى من قدومي.. وقد تعرفت على جميع سكانه وتوطدت بيني وبينهم علاقة ودية وحميمة جعلتهم يتجاوزون

عن عربدتي وعن سلوكاتي وتصرفاتي غير المقبولة أحيانا ولعل الحب الحقيقي الذي كنت أكنه للجميع كان هو العامل الأساسي في كسب مودتهم وثقتهم بي وتجاوزهم عما يصدر عني من طيش ونزوات تافهة وجنونية.

وعدت أمنتا بدفع ثمن التذكرة مشترطا عليها الجلوس في آخر القاعة لأقبلها وأداعب نهديها الكبيرين فقبلت ولم تمانع.

ثم سرت معها خطوات ومنحتها بعض النقود فاشترت كاكاوا وقطعا من الحلوى وتواعدنا على اللقاء أمام قاعة السينما على الساعة التاسعة مساء ثم افترقنا.

وعرجت على بيت تيام فوجدته ممددا على سريره يتلو أوراده والسبحة بين أنامله، لم يكلمني بل كان يومئ إلي فقط وهو مستغرق بحسه ووجدانه كله في الذكر وبشرته السوداء تعلوها صفرة الذاكرين وشحوب الخاشعين وعيونه مرهى مرهقتان تحملقان من غير تركيز في سقف الغرفة فجلست على مقعد هناك أنتظره ليكمل أوراده.

أما زوجته ماري فكانت في الفناء الخلفي للبيت تغسل الأواني لإعداد العشاء، ثم دخلت الغرفة وسلمت علي وبقيت في صمتها المعتاد لصعوبة التواصل بيني وبينها وقد كان تيام أحيانا يترجم لي أقوالها بالعربية..

لم تنجب ماري أطفالا عندما كانت فيما سبق زوجة لشيخ الطريقة الأكبر الذي أنجب أطفالا من نساء غيرها، وقد طلقها ليتزوجها تيام بعده وهو يراها هبة مباركة من الشيخ ولم يكن لتيام أطفال منها أيضا على الرغم من أنه تزوجها منذ ثلاث سنوات خلت وهو يتمسك بها كثيرا.

إنه البيت الذي شعرت فيه بأنني أثير فعلى الرغم من فقر تيام إلا أنه يتكلف أحيانا ليقيم لي عشاء مميزا فيه عدة سفرات متنوعة.

أنهى تيام أوراده فسلم علي ورحب بي وأمر زوجته أن تمد السماط فتناولنا العشاء ولكن تيام كان مرهقا جدا يبدو عليه وكأنه شبه مخدر ولعله في ذلك المساء قد أطال التلاوة والذكر وانجذب نحو أجواء صوفية هزت وجدانه.

ولما قاربت الساعة التاسعة استأذنت في الخروج فقال لي تيام:

لماذا لا تقضي الليلة هنا.. وفي الصباح نذهب معا إلى منج إلى زاوية الشيخ؟.

فقلت له: لابد أن أعود الليلة إلى بيتي وسنلتقي هناك غدا في منتصف النهار.

قال: سنبيت الليلة القادمة في الزاوية فوافقت على ذلك.

تحاشيت الحديث مع تيام عن عمر لاي وعن سيرابا، وأنا لم أصارحه بشيء مما حدث نظرا لحاجز من الاحترام بيني وبينه،

فأنا أخفي عنه نزعاتي وأهوائي، ويخيل إلي في بعض الأحيان أنه على علم بكل صغيرة وكبيرة ولكنه لم يصارحني.. أما ماري فأعتقد أنها تلفظ أسماء بعض نساء الحي عنوة ممن كنت أداعبهن في الخفاء في حضرة تيام متطلعة إلى ملامحي وردود فعلي.

ترى هل كانت تعلم بتسربهن أحيانا إلى سريري، حيث كنت أنام خارج البيت لسخونة الجو ولحاجة في نفسي على الرغم من أن المصباح يظل مشتعلا داخل البيت، لأن تيام يقضي الليل إلى الهزيع الأخير منه في الذكر وقراءة القرآن، وفي غلس الصبح يصلي الفجر وينام.. ثم يأتي الضحى ويقرأ وردا آخرا، وهكذا لكل وقت ورده.

وأذكر أنه خرج ذات ليلة وصادف خروجه وجود فتاة مراهقة نارية الطبع عند سريري، ففزعت عندما لمحته وانطلقت كالسهم إلى بيتها في غبش الظلمة ومع ذلك فقد عرفها ولم يعلق عن الموقف في حينه ولكنه كان يعبر عنه فيما بعد بطريقة غير مباشرة حيث أنه كره تلك الفتاة كرها شديدا منذ تلك الليلة فهو يصرخ في وجهها كلما جاءت إلى بيته تطلب شيئا من ماري ولم يكن ينهرها من قبل حين تأتي للبيت وقد قال لي ذات ليلة:

هذه الفتاة خبيثة فهي لا تكتم سرا وتنشر الأخبار.

وعلى الرغم من أن الفتاة كانت تخشاه إلا أنها كانت تقف في وقاحة أمامه وقد ضيق الخناق عليها فصارت لا تكاد تجد فرصة

للاتصال بي حيث أصبح يقطع أوراده في الليل ويتفقدني بنظره مشرفا علي من منـزله الجاثم على مرتفع صغير ثم يعود إلى البيت ليواصل أوراده وصلواته.

وجدت أمنتا في انتظاري أمام مدخل السينما فاقتطعنا تذكرتين ودخلنا سويا..

كان الضوء داخل قاعة السينما باهتا جدا وليس بداخلها إلا عدد قليل من المتفرجين فتيان وفتيات.. جلست مع أمنتا على مقعدين خلفيين فنلت منها ما كنت أصبو إليه واستمتعت بنهديها الكبيرين وارتويت من لماها العسلي الذي طالما اشتهيته وعوضت حرقة ذلك اليوم الذي اتجهت فيه معها إلى شاطئ البحر مخترقين الأشجار الكثيفة بقصد ممارسة المتعة والحب، وكان تيام قد تعقبنا عندما تفقدني في الحي ولم يجدني وربما أخبره بعض صبية الحي عن وجهتي مع أمنتا، فجاء يقتفي أثرنا وربما كان حرصه الشديد علي هو الذي جعله يراقبني في كثير من الأحيان أو أنه كان يخشى الفضيحة فهو يحذر من نساء الحي كل الحذر، ومع ذلك فأنا لا أرعوي عن زيارة الأماكن المشبوهة وأخوض مغامرات كثيرة متبعا شهواتي ونزواتي العبثية التي لا حدود لها..

وقد شاهدنا تيام يقف على ربوة عالية مشرفا على الشاطئ يدير بصره في كل منحى واتجاه بحثا عنا وما أن رأيناه حتى عدنا

أدراجنا سريعين عبر دروب ملتوية نتوارى بالأشجار والحواجز الشوكية والأغصان الملتفة.

والتقينا مع تيام في الحي بعد أن رجعت مع أمنتا ولم يظفر بنا متلبسين وقال لي تيام:

بحثت عنك فلم أجدك فأين كنت؟

قلت: تجولت قليلا على شاطئ البحر ثم عدت.

لم يعقب عن كلامي وخيل إلي أنه رآنا معا ولكنه لم يشأ أن يحرجني أكثر.

كان تيام كريم الخلق أصيلا وشهما إلى أبعد الحدود وقد زادته التربية الصوفية بسطة في الفكر والفهم، فهو يتجاوز ويعذر ويغضي، سمح الخلق مع النساء إلا أنه يحذرهن حفاظا على سمعته بصفته إماما ويخشى الأخبار والشائعات التي تسري بينهن وقد حدثني بذلك ذات مرة، وهو لا يحب المرأة التي لا تتحفظ وتعلن عن أهوائها بصورة فاضحة ومكشوفة، وهو يحترم المرأة الرزينة وإن تبرجت مثل سيرابا وفيرولين وفاتو وغيرهن على الرغم من إظهار مفاتنهن بوعي منهن أو من دون وعي.

أذكر مرة أن فتاة عرجت على الشجرة التي تظلل بيته، ووجدت تيام وكل نساء الحي يرتشفن الشاي الذي يصنعه بيده في موعد الظهيرة اليومي، وكانت تلك الفتاة تضع إناء فخاريا

على رأسها فيه قطع صغيرة من الحلوى تبيعها متجولة في الأحياء، وهي فتاة لعوب طروب متمردة ووقحة ونزقة ولكنها حلوة الشمائل محببة أضحكت الجميع بتهريجها ونكاتها وحركاتها الأنثوية البهلوانية حتى تيام نفسه لم يستطع كتمان بسماته.

لم أفهم شيئا مما كانت تهرج به الفتاة ولكنها أقبلت نحوي ومالت علي لتقبلني أمام الجميع قائلة بالفرنسية! آه يا حبيبي! أحبك كثيرا دعني أقبلك.

وهنا زجرها تيام بشدة ففزعت وارتدت ولم تفعل، ولو تركها لقبلتني لا محالة وغرق الجميع في الضحك بأصوات عالية.

ثم حملت إناءها الفخاري وانثنت في غنج وهي تميس وتغني أغنية حب والهة بالفرنسية لـ (فيكي لندروس) (المحبون مثلك موجودون ولكنهم في الأحلام) كانت تغني وتلتفت وتتأود بقوامها كالثعبان وهي تغري بالغواية.

رجعت من السينما إلى البيت مرهقا تعبا فنمت نوما عميقا حلمت أثناءه بأسراب قادمة من النسور البيضاء تطبق الأفق الشمالي بأعداد لا تحصى وتصدر عنها أصوات غريبة حادة فملأت أجواء البلاد وصارت تحوم وتنـزل من العلاء قليلا قليلا لتقترب من الأرض، ويخرج أهل البلد عن بكرة أبيهم فيشرئبون بأعناقهم إلى السماء وهم مندهشون أمام هذا الطوفان

المتلاحق من أسراب الطيور البيضاء، وفجأة بدأت تنقض على الناس المتجمهرين وتهاجمهم بمناقيرها التي تشبه المناشير المعقوفة، ففزع الناس وهرعوا صوب كل اتجاه فارين من ضربات مناقيرها المصمية وهم لا يلوون على شيء.

قتلت الطيور خلقا كثيرا ودخل الناجون منهم منازلهم وغلقوا على أنفسهم الأبواب والنوافذ، واستمرت الطيور تهاجمهم بلا هوادة وتضرب الأبواب والنوافذ بمناقيرها وتتشبث بالجدران بمخالبها مصرة على قتلهم.. ثم ما لبثت أن استقرت على السطوح والأشجار وغطت كل شيء حتى شكلت رداء أبيض كالثلج.

احتلت النسور الرهيبة كل الأماكن وسجن من تبقى من الناس في بيوتهم.. ثم رأيت نسرا منها ينقض بقوة ويخطف ابن سيرابا وهو يصرخ بشدة ويطير به عاليا نحو الشمال.. وتخرج سيرابا والهة تجأر بأعلى صوتها ولكن النسر تعالى بعيدا في الأفق الشمالي، وسيرابا لا تزال تركض وراءه إلى أن احتوتها الغيوم وانقطع صوتها تماما..

ولا أدري كيف أشفقت على الطفل فأجهشت بالبكاء بكاء كاد يمزق نياط قلبي.

وبدأت النسور تطير في أسراب متلاحقة عائدة من حيث أتت إلى أن غادرت جميعا وخرج الناس من بيوتهم يصيحون بالويل والثبور على قتلاهم، وقد تناثرت جثثهم في كل مكان..

استيقظت من النوم فزعا مرتجفا من الذعر، وأطبق علي حزن ثقيل وخوف من المستقبل وفكرت في هذا الحلم الغريب فلم أجد له تفسيرا أو تأويلا.

أطللت من نافذة غرفتي فوجدت الفجر ينسج خيوطه الأولى في غلس الليل الحالك، واستلقيت مرة أخرى على سريري وشعرت ببرودة العرق الذي لا يزال يتفصد من جسدي، ولم أستطع أن أواصل النوم ففكرت في الذهاب إلى صديقي عمر لاي في بيته إذ لا بد أن أعرف ماذا يريد مني وعلام تنطوي عليه سريرته وفيم يفكر؟ لماذا لم يحضر في الموعد الذي حدده هو بنفسه أمام الكشك؟

خرجت في ذلك الصباح الباكر تحت ضغط القلق والحيرة وقررت أن ألتقي بعمر لاي قبل خروجه من البيت هذا الصباح.

سرت في شارع واكام الكبير وجلست في إحدى المقاهي منتظرا شروق الشمس ثم طلبت شايا من النادل وهو فتى طيب من غامبيا وتحدثت معه كثيرا وهو يشتكي الفقر وضيق العيش في غامبيا جاء إلى السنيغال بحثا عن لقمة العيش وهو لا يتقاضى الآن إلا فرنكات قليلة من صاحب المقهى، حدثته عن الجزائر

وما تزخر به من مصانع ومزارع وتجارة فتمنى الهجرة إليها أو إلى أي بلد آخر كإيطاليا للحصول على عمل يخرجه من حياة الشقاء والفقر الذي يعانيه مع أسرته في غامبيا.

خضت مع هذا الشاب في موضوعات شتى.. كان ينهض كلما جاء زبون إلى المقهى فيناوله ما يطلبه ثم يعود إلي وقد آنسته وفتحت له بحديثي فسحة للأمل والرجاء..

رفض النادل الغامبي أن يقبض ثمن الشاي مني، وخرجت من المقهى وأنا أفكر في كرم السود الذي فاق كل الحدود، إذ على الرغم من الفقر الذي يعانونه إلا أنهم يبهرونك بكرمهم فيدعونك للطعام ولعل المضيف لا يملك إلا ذلك الرغيف من الأرز، فلا شره في المنافسة على الغنى ولا سعي للامتلاك ولا أثر للانتهازية عندهم وإن وجد الواحد منهم قوت يومه فلا يفكر في غده وقد يبيت طاويا ويصبح على الطوى إلى أن يأتي الرزق من هنا أو هناك، وقد ألف الناس العوز والجوع ويخبرني بعضهم بأنهم لم يتناولوا شيئا طيلة النهار وهم يتضورون جوعا ولكنهم صابرون وربما لا أجد في جيبي ما أقدمه لهؤلاء الذين يتضورون وقد بلغوا مرحلة قصوى من الجوع والسغب، فأشعر بضيق شديد يملأ جوانب نفسي وألعن عدالة هذا العالم الذي سلب الفقراء حقهم في العيش الكريم.

وبعد أن سرت مسافة إثر خروجي من المقهى وأنا غائص في التفكير وقد اختلفت علي السبل سألت أحد المارة عن الكشك الذي يقع بالقرب من مسجد واكام ولم يفهم الرجل معنى كلمة موسكي بالفرنسية فقلت له بالأولوفية التي جمعت منها رصيدا من الكلمات والعبارات (دياكا، دياكا) وتعنى المسجد فهز رأسه بعد أن فهم القصد ودلني على الطريق المؤدي إليه وتابعت السير نحو المسجد.

أشرق النهار تماما وعجت الطرقات بالمارة وتصاعد ضجيج محركات السيارات والحافلات القديمة التي تنفث وراءها دخانا كثيفا ليختلط بغبار الطريق غير المعبد فتشعر بالضيق والاختناق، وعلت أصوات أصحاب سيارات النقل وهم يدعون المارة للركوب، وصلت الكشك ومنه اتجهت نحو بيت سيرابا حيث يقيم عمر لاي منذ عودته من إيطاليا.

استقبلني بنوع من الفتور إذ كان وجهه ممتقعا وعيناه تظللهما غشاوة قاتمة.

وقال: سوف أهيئ نفسي وآتيك.

وبعد لحظات خرج ببذلته الأوروبية الجديدة وتذكرت هيئته قبل سفره إلى أوروبا حين كان يرتدي الجبة ويلف السبحة على يده ويستاك بعود الأراك، تغير عمر لاي تماما وأصبحت هيئته

تدل على انفصاله عن التصوف وكأنه لم يعد ذلك الرجل الصوفي الهين المتواضع.

توجست منه حذرا لما رأيته يتحسس جيب سترته الداخلي بين الحين والآخر إذ ربما كان يخفي شرا أو يتأهب للانتقام، وقد علمتني الحياة أن البشر قد ينقلب من إنسان وديع إلى حيوان متوحش ومن ملاك رحيم إلى شيطان رجيم.

سرنا معا باتجاه البحر في مسلك ضيق يفضي إلى الشاطئ وقد التفت على جانبيه أشجار شوكية وكانت أشعة الشمس حارقة في ذلك الصباح وأحسست بالاختناق وبادرني قائلا:

معذرة لم أكن في الموعد البارحة وقد كنت قلقا جدا وأخبرك أنني عزمت على أن أطلق سيرابا.

فاجأني عمر لاي بقراره الحاسم مفاجأة امتزجت فيها الغبطة بالأسف في آن واحد.. تبا لي إنه موت الضمير، وقد استوى عندي الخير والشر، ومهما كان الأمر مجرد إحساس إلا أنه فساد في الضمير.

وتوقفت عن المسير ونظرت إليه بحدة.

وقلت: ماذا أصابك؟ ماذا حدث لك؟ ماذا فعلت سيرابا حتى تجازيها هذا الجزاء؟

قال: إن سيرابا تخونني.

قلت: هذا مستحيل هل أنت متأكد مما تقول؟

قال: إن هذا الطفل ليس ولدي أبدا قال ذلك في حدة وإصرار.

قلت: لعلك تقصد شقرته ولونه الأبيض.

قال: نعم أليس هذا دليلا قاطعا على الخيانة؟

فحاولت أن ألف حوله مراوغا بأدلة مختلفة لأجتث سخيمة نفسه وبدأت بالدليل الديني الذي ربما يكون له تأثير في أعماقه فذكرت له تلك الحادثة المشابهة التي وقعت في زمن الرسول حيث بين للناس من خلالها أن العرق دساس وقد يحدث أن يكون أحد الأجداد الأوائل أسود أو أبيض ثم يظهر لون الجد في الأحفاد بعد مرور أجيال كثيرة.

فانتبه عمر لاي واستدار بكليته نحوي قائلا لي في لهجة تتخللها الدهشة:

نعم يحتمل أن يكون الأمر كذلك.

وغاص مليا يتأمل ما قلت له وأردت أن أزيده يقينا فعقبت قائلا:

إن هذه القضية باتت معروفة الآن وأكدها العلم الحديث فلون العينين ولون البشرة صفتان يتعلقان بقضية الوراثة وقد تظهر الصفة أو الصفتان في الأجيال اللاحقة ولو بعد قرن من الزمن أو قرون، هذا ما توصل إليه علم الوراثة الآن.

وارتحت قليلا حين وجدت لقولي بعض التأثير في نفسه إذ رأيته قد اقتنع بفكره ولكنني أدركت في نفس الوقت بأنه يشعر بمرارة واقعه في صميمه فظاهرة لون ابنه تنكد عليه حياته في مجتمع لا يرحم والظاهرة تبدو واقعا حقيقيا لا جدال فيه تدل على الخيانة الزوجية في نظر المجتمع فكل الأطفال لهم بشرة سوداء إلا ولده ومع ذلك فقد تأسى بكلامي وتطلقت أساريره بعض الشيء.. قلت له ذلك وأنا أشعر بالتدليس والتستر على الحقيقة.

واصلنا سيرنا نحو الشاطئ وأشرفنا عليه من علو فلاحظنا كثيرا من المصطافين ينتشرون على رماله ومياهه ويتخلل تلك الجموع بعض الأفراد من البيض الوافدين ويطلق عليهم السكان باللغة الأولوفية (النار) إن كانوا عربا ولا تعني هذه الكلمة معناها بالعربية أما الأوروبيون فيطلقون عليهم كلمة (توباب).

هناك الكثير من العرب المقيمين ومعظمهم من سوريا ولبنان وهم يحترفون التجارة ويملكون المحلات الكبرى في العاصمة داكار ويشغلون عددا كبيرا من أبناء البلد فمن توفر له الحظ وجد عملا عند هؤلاء التجار العرب.

لم يكن عمر لاي بهذا المزاج القلق قبل أن يسافر إذ أصبحت لا أرى فيه ذلك السمت وذلك الاطمئنان وتلك الطيبة المتناهية

فقد غدا وكأنه مصاب بنكسة في أعماقه حيث رجع وفي نفسه أثر لصدمة عنيفة، أدركت فيه ذلك من خلال قلقه وتوتره الدائمين.

تجولنا على طول الشاطئ وسألته عن حياته في إيطاليا فأخبرني بأنه يعمل عند أحد المزارعين الكبار وتأكدت أنه يريد البقاء في إيطاليا فالحياة فيها لا تقارن بالحياة في السنيغال وقد وفر له صاحب المزرعة راتبا محترما ثم صارحني بأمر ند منه بعد تكتم فعرفت جانبا من معاناته إذ قال لي:

تعرفت على فتاة من أصل فرنسي تقيم في إيطاليا وهي فتاة مسيحية يقال لها (أنا) وقد أحبتني كثيرا واقترحت علي الزواج فما رأيك؟

فقلت: ولكن أنت متزوج ولك ولد؟

قال: أصارحك بأنني ندمت على الزواج من سيرابا فهي تتعالى علي ولا تهتم بي وأشعر أنها لا تعيش معي بوجدانها، وأما الولد فإنني أراه غريبا عني وليس من صلبي..لم أحس في يوم من الأيام بأنها تقترب مني.

قلت: وماذا تنوي يا ترى؟

قال: سوف أتزوج من (أنا).

قلت: هل هذا هو قرارك النهائي؟

قال: نعم وربما تكون هذه آخر مرة أعود فيها إلى السنيغال.

وتأكدت فعلا أن الرجل ينوي الانفصال عن سيرابا.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة وازدادت الشمس اشتعالا وأصبح الجو لاهبا لا يطاق فعدنا أدراجنا وأثناء العودة مال بي عمر لاي نحو حانة صغيرة دون أي تحرج أو تردد منه واستغربت منه ذلك الانقلاب الجذري وعرفت أن الرجل قد تخلى عن ماضيه الروحي كلية.

كان جو الحانة منعشا باردا فهي مكيفة وأنيقة تحتوي على بعض الأرائك الفاخرة والتحف المزخرفة المصنوعة من خشب الأبنوس وهناك في زاوية من زوايا الحانة رجل يظهر من سحنته أنه صيني من الأثرياء يجلس مع فتاة سنيغالية ممتلئة الجسم مستديرة الوجه ترتدي جبة فيروزية اللون وتضع حليا كثيرا على أطرافها وأقراصا ذهبية لامعة.. تبدو تلك الفتاة رزينة هادئة ومن عائلة غنية يعاقران مشروبا روحيا أبيض.

وعلى مائدة أخرى شاب أسمر اللون قاسي النظرات يظهر وكأنه ينتمي إلى عصابة شريرة يتناول الجعة يبدو كالثعبان الخطير الذي يترصد فريسة.

جلسنا على مائدة قريبة منه وطلب عمر لاي جعة من النادل الذي وقف أمامنا بعد برهة من جلوسنا ودعاني عمر لاي إلى الشرب ففضلت أن أتناول نيس كافي قائلا له:

إنني مدمن على القهوة.

وتناولت فنجان القهوة المركزة جدا ونفحات الخمر تندفع إلى أنفي بين الحين والآخر في جو رطب بارد منعش.

شرب عمر لاي بعض القناني من الجعة وبدأ مزاجه يرق وتكسرت ملامحه الصارمة بنشوة الخمر وطافت عبر وجهه القاتم إشراقة لطيفة أضاءت لها أساريره ولم أعهد فيه هذا المزاج الرائق من قبل بل كان يبدو دائما حادا وحازما وقاسيا أيضا على الرغم من مواقفه الإنسانية، وأطلق العنان لعواطفه وأحاسيسه الجميلة فتناول قنينة الجعة بين يديه وصار يحملق فيها ثم قال:

ألا تشبه الملائكة؟

وهنا تأكدت بأنه صار بعيدا عن الدين تماما، فسايرته قائلا:

ومن أدراك بأن الملائكة صهباء بهذا الشكل؟

قال: وأنت من أدراك بأنها ليست صهباء؟

قلت: معذرة يا شارب الملائكة ولكن لا تكثر من شربها حتى لا تأخذك إلى الجحيم.

ورد ببديهة عجيبة فقال:

صدقت إن المسيح عليه السلام يقول: (قليل من الخمر يصلح عقل الإنسان).

راقتني هذه العبارة التي لم تفتني وأنا أطالع الكتاب المقدس.

قلت: كنت تكتم عني علمك ومن كتم علما ألجمه الله بلجام من النار.

فضحك بصورة هستيرية حتى بدت أسنانه الناصعة إلا من صفرة قليلة لم تكن فيها حين كان لا يفارقه عود الأراك.

ثم قلت: إني على موعد مع تيام للذهاب إلى الزاوية فسأذهب الآن.

حاول أن يلح علي بالبقاء ولكنني أكدت له بأن تيام في انتظاري ولا بد من موافاته فلم يصر علي كثيرا وشعرت بأنه لا يزال محافظا على هذا المبدأ إذ كان من قبل نموذجا في التمسك بالمواعيد وتنفيذ الوعود ولا يرجئ مهمة إلى وقت آخر إذ أنني عندما التقيته لأول مرة في السفارة وأخبرته بالورطة التي وقعت فيها وأنني أبحث عن عمل شرع مباشرة في السعي معي فأخذني إلى عدة مؤسسات وهو يسأل عن وظيفة مناسبة لي ولكن دون جدوى ورفض شيخه يومئذ أن يقبلني ضيفا في الزاوية ثم وجهتنا المقادير نحو سيرابا.

سيرابا لا يزال صوتها الدافق يتغلغل في صميمي ولا تزال نبراتها الإفريقية شهية كطعم حبات الكولا المرة واللذيذة، الكولا التي أدمنت عليها كما يدمن عليها أهل السنيغال..

أحببت سيرابا عذراء تئز كالنار.. أحببتها أما تتلفع بالقداسة وتدوس على الخطوط الحمراء.. وجدت طعم حبها في نكهة الجوز الهندي وفي عصير المنج الإفريقي.. حتى قميصها الأصفر

أحببته وقد كتبت عليه عبارة باللون الأسود تقول (هل تتذكرني).. لا أزال أحب سيرابا حتى الموت.

أحب طفلها.. أحب فيها تلك الخشونة وتلك الأمومة المتبلدة.. يأخذني هوس الجنون نحوها بشكل رهيب.

توجهت إلى بيت تيام وقد جهز قفة تحوي معدات الشاي ولم ينس أن يشتري لي قسطا من نيس كافي فهو يعرف أنني أفضل القهوة عن الشاي.

أما ماري فقد تبرجت وتأنقت لأن اللقاء في الزاوية في آخر كل أسبوع يعتبر حفلا كبيرا بالنسبة لأتباع الطريقة فلا بد من الزينة والأناقة والتطيب بالمسك والعطور وربما يكون لتأنقها وابتهاجها دافع آخر، حتى تيام كان يعتني جدا بهندامه فيلبس جبة زرقاء نظيفة ويضع على رأسه شماغا حجازيا يلفه خيط أسود.

في هذه المناسبة يكون تيام أكثر بشرا وعجبا بنفسه وكذلك ماري حيث ينطلق لسانها وتعلو البسمة شفتيها وتكون عادة أكثر قربا مني فهي تمنحني في هذه المناسبة ودا إضافيا لا أعرف دوافعه فتعد لي قهوة نيس كافي بنفسها في المساء وتؤثرني عندما يطهى اللحم فتأتيني بقطعة كبيرة تأخذها من الجفان قبل أوان الغداء أو العشاء.. أحس دائما أن هناك علاقة حميمة بيني وبينها

ولكنها علاقة صامتة لا تكاد تلحظ إلا في مواقفها الرقيقة معي فقد كانت اللغة حاجزا يفصل بيننا.

وقد رأتني ذات مرة أرمق من كثب فتاة تشتغل في مطبخ الزاوية حين نزعت قميصها وتعرت لتغسل أطرافها بعد إنهاء العمل في حنفية لسقي الأشجار، رأتني من خلال نافذة المطبخ المطلة على الفناء فابتسمت ثم تراجعت لما وقع عليها بصري.

وصلنا إلى الزاوية قبل الغداء فاستقبل الناس تيام كالعادة بحفاوة وقاموا إليه جميعا يصافحونه ويسلمون عليه وأفسح له صدر المجلس ودار حديث بين الحاضرين بالأولوفية وأنا كالعادة لا أفهم شيئا.

إنهم لا يتوقفون عن الكلام والمناقشة.. ثرثرة مستمرة وجدال لا ينتهي طوال الوقت.

وبعد الغداء بدأ الجميع يستعدون لصلاة الظهر وأذن تيام بدلا من مؤذن الزاوية بنبرة أعجمية شجية وقد أخطأ في نص الأذان حيث كان يمد الألف المقصورة في حرف (على) (حي على الصلاة حي على الفلاح) ونبهته إلى ذلك الخطأ الذي يقول عنه الفقهاء بأنه يبطل الأذان وبينت له كيفية النطق السليم في العبارتين من نص الأذان.

وإثر الانتهاء من الصلاة انقسم الأتباع جماعات وفرادى فجلس بعضهم في قاعة الاستقبال الكبيرة وجلس بعضهم

الآخر أمام بوابة الزاوية تحت أشجار المنج التي تحف جانبي الشارع الكبير.

التقيت مع أخ تيام واسمه عمر وهو من أتباع الزاوية في حوالي الثلاثين من العمر وهو رجل تقي ورع يوشك أن يحسن العربية مثل أخيه تيام تجرأت وسألته قائلا:

أما تفتنون بهؤلاء النساء اللواتي يظهرن شبه عاريات بنهودهن وكشوحهن من خلال اللباس فقال في سرعة ودون تفكير:

نحن لا نبالي بهن ونطق هذه العبارة في سرعة وعجمة وقد مد حرف الباء في كلمة بهن (بيهن).

قلت: إن أهل التصوف أشد حساسية وتأثرا من غيرهم نظرا لطبيعتهم الروحية المرهفة فكيف تقول إنكم لا تبالون؟

قال: نحن متعودون على هذه المناظر ولا أثر لها في نفوسنا.

قلت: وما سبب هذه الظاهرة التي تبدو طبيعية في السنيغال؟

قال: إن الإسلام في هذه المناطق لم يقض على بعض العادات الجاهلية لدينا بل بقيت كما هي منذ سنين طويلة ومن بين العادات التي بقيت ظاهرة العري.

وتأكدت أن السبب هو أن الإسلام انتشر في هذه الربوع عن طريق التصوف، والتعاليم الصوفية لا تركز عادة على الظواهر بقدر ما تركز على الباطن وكان للشيوخ تأثير كبير في النفوس

فأنت تشعر بين هؤلاء بالطيبة والتسامح والكرم اللامحدود وتشعر بالأمان والسلم والثقة فلا مجال للخديعة والسرقة والاحتيال والنصب على الرغم من الفقر المدقع الذي يعانيه أغلب الناس.

وفي هذه الأثناء وبينما نحن جلوس أمام بوابة الزاوية تحت شجرة منج وارفة الظلال طرقت سمعي أنغام لمزامير شجية تصدر من موكب جنائزي يمر غير بعيد من الزاوية فقلت:

– ماذا هنالك يا عمر؟

قال: إنها جنازة مسيحية متجهة إلى المقبرة.

قلت: هل يمكن الذهاب هناك لمشاهدة طقوس الدفن؟

قال: لا حرج في ذلك إطلاقا فنحن – المسلمين – نشيع جنائزهم وهم أيضا يشيعون جنائزنا.

قلت: هذا شيء جميل ورائع ولكن ألا يقع أحيانا صراع طائفي بين المسلمين والمسيحيين؟

قال: أبدا لم يحدث هذا مطلقا ولم يقع ونحن نعيش في وئام تام بيننا.

ثم أردف قائلا: ألم تشاهد فيرولين وكاترين تعملان هنا في زاوية الشيخ وهما فتاتان مسيحيتان أليس هذا دليلا على ما قلت لك؟

راقتني الفكرة تماما وأدركت أن للتصوف – مهما كان – فضلا في السمو بالنفس وتمكين المحبة الإنسانية في القلب.

لم يكن الشيخ موجودا في الزاوية طيلة ذلك اليوم إلى أن أقبل في المساء في سيارته الفخمة وبرفقته شاب من أتباع الزاوية اسمه محمد وقد رأيت هذا الشاب مرات عديدة في الزاوية ولعله من الذين يقومون بأعمال مهمة تخص الشيخ فهو لا يختلط بالأتباع كثيرا ولا يظهر إلا لماما، هو شاب نشط يرتدي دائما بذلة جديدة ويضع رابطة عنق أنيقة وقد رأيته ذات مرة يرافق وفدا من علية البلد في السنيغال جاؤوا إلى الزاوية لمقابلة الشيخ وهو يتقدمهم ثم يأمرهم بالدخول بعد أن طلب لهم الإذن من الشيخ.

جاء محمد في ذلك المساء مع الشيخ الذي بدا عليه اهتمام كبير ونشاط غير عادي، رأيت الخدم يعدون له مجموعة من الحقائب ويضعونها في سيارته الفاخرة، وتناهى إلى سمعي أنه يريد إرسال محمد إلى إيطاليا من أجل العمل هناك، ويريد أن يوصله إلى المطار بنفسه لتشييعه عند السفر.. كم من واحد من عمال الزاوية تمنى أن ينال تلك الحظوة وغبطه الجميع على حظه الوافر.

كان الأتباع جميعا يعتقدون اعتقادا راسخا في شيخهم المعظم بأنه إنسان كامل فهم يذكرونه دائما بخير فهو صاحب علم غزير وله مال كثير ويده بيضاء على الفقراء والمساكين.

إن سماعي لدروس الشيخ الأسبوعية التي يلقيها على أتباعه واتصالي به أحيانا عندما كان يتفقدني ويسأل عن أحوالي وما أنا في حاجة إليه وإرساله إلي في كل مرة مبلغا من المال عن طريق تيام، كل ذلك جعلني أعرف جانبا من سخاء هذا الشيخ الكبير.

أدركت من دروسه مقدار درجته من العلم فهو عالم مدقق بحق واسع المعرفة والثقافة وله نباهة وبصر بالدين وبالنفس الإنسانية وعرفت مدى ذكائه المتناهي وهو يعظ ويرشد فتشرئب إليه الأعناق وتستسلم له القلوب مسحورة بكلامه الآسر.. وعلى الرغم من جوده وكرمه إلا أنني كنت أستغرب منه قلة المرتب الذي يمنحه للخدم والعمال إذ كان لا يتجاوز مرتب الواحد منهم الألفين والخمس مائة فرنك فرنسي قديم وهو مبلغ زهيد لا يسمن ولا يغني من جوع وهم راضون بذلك إلا أنهم كانوا يتمنون أن يرفع الشيخ راتبهم الشهري.. حاولت الإجابة عن سؤال ظل يحيرني دائما وهو لماذا ينقص الشيخ أجر الخدم والعمال وأنا أرى بأم عيني كثرة الموارد المتدفقة عليه وما تدر عليه أملاكه من أموال ثم إني لا أشك أبدا في سخائه وجوده.

قلت في نفسي لعل الشيخ أدرى بشؤون أمره وهو خبير بما يفعل.

وفي سهرة الليل ظل تيام يثرثر ويوزع كؤوس شايه على الساهرين من نساء ورجال وقلما كان يرفع بصره عن الإبريق وعن موقد الجمر.

بتنا تلك الليلة في زاوية الشيخ وأنسام الاطلسي تروض أجنحتها الخفيفة فتداعب الوجوه مفعمة بالأجواء الصوفية ومعبقة برائحة مسك الليل الزكي المنبعث من بين أشجار المنج التي تدلت ثمارها الناضجة وقد لاحت برتقالية اللون على الأضواء بين الأغصان والأوراق.

عدنا ثلاثتنا أنا وتيام وماري قافلين مساء يوم الجمعة بعد انتهاء الحفل الأسبوعي إلى البيت في واكام مستقلين الأوتوبيس وشعرت بأن تيام في حاجة إلى المال حيث كان ينفق مرتبه الزهيد في بضعة أيام فزودته بمبلغ من مرتبي الخاص.. كنت أفعل ذلك كلما شعرت بأنه لا يملك مصروف البيت.

وفي ذلك المساء بالذات طوف تيام بأهل الحي جميعا بيتا بيتا وكان من شأنه أن يفعل ذلك بين الحين والآخر وخاصة يوم الجمعة وأنا دائما برفقته وهو يزور القاصي والداني من سكان حي واكام ولكي يطوف بأهل الحي جميعا يتحتم عليه ألا يمكث كثيرا عند الواحد منهم فزياراته لا تستغرق إلا دقائق معدودات معهم وكنت لا أعرف ما كان يدور بينه وبينهم من حديث ولم أسأله عن شيء من ذلك.

تبدو زياراته من وجهة عادية يقوم بها انطلاقا من مبدأ ديني ومن وجهة أخرى مقصودة من الشيخ الأكبر.

كان يزور كل البيوت غبا، إلا أنه يمكث مطولا في بيت سيرابا وقد قال لي ذات مرة بعد خروجنا من بيتها:

إن زواجها من عمر لاي ليس زواجا موفقا.

قلت: لماذا؟

قال: إنه إنسان خبيث ونطق حرف الثاء سينا.

وعقب قائلا:

إنها لم تعمل بنصيحتي لها.

قلت: وما رأيك فيها هي بالذات؟

قال: إنها فتاة مثقفة وقوية وصاحبة مواقف.

ثم طرح علي سؤالا محرجا فقال:

ماذا يقول لك عمر لاي حين تلتقي به؟

قلت: أتحدث معه في أمور شتى سيما في الأمور الدينية ولكنني أحسست بأنه لم يعد يتمسك بالدين كما كان قبل سفره.

قال: إن سريرته خبيثة وإيمانه سطحي وظاهره ليس كباطنه، ولقد عرفته على حقيقته وأنت الآن لا تدرك نفسيات الناس هنا في السنيغال.. لم أشأ أن أواصل الحديث معه في هذا الاتجاه فأنا أعرف أن هناك سوء خلاف بين الإثنين ناتج ربما عن اختلاف

الطريقة الصوفية التي يتبعها كل منهما عن الأخرى أو ربما يكون الخلاف لأمر آخر.

فقلت له محولا مجرى الكلام: أليس هؤلاء الناس الذين تزورهم بسطاء وطيبين؟

قال: أنت لا تعرف طبيعة أهل الحي إنهم يمضغون الكلام فيما بينهم وينقلون الأخبار والشائعات ولا بد من الحذر منهم.

أحسست بشيء غامض في كلامه إذ كأنه يلمح لي بأن أكون متحفظا في سلوكي معهم وهو يعرف بأنني أختلط بهم ليلا ونهارا وربما يكون على علم أيضا بكل شيء أقوم به في الخفاء لذلك كان يخشى الفضيحة وأنا ضيف لديه.

وحفاظا على سمعة الرجل فقد أخذت كلامه بعين الاعتبار وصرت أراقب نفسي معهم على الرغم من أنهم يستقبلونني دائما بحفاوة وبقلوب مفتوحة، إذ كلما مررت في الحي دعاني كل واحد للمكوث عنده في بيته وقد انسجمت معهم تماما وراقتني جدا حياة البساطة والتفتح لديهم كما راقني كرمهم الشامل وما أحاطوني به من ثقة ومودة..

وازددت تقربا من تلك الطبقة العامة التي يتجلى فيها الوجه الحقيقي للسنيغال وأدركت حبهم للجزائر وحبهم للعرب أيضا فوجدت كل التقدير والإجلال منهم.

سهرت مع تيام تلك الليلة فقرأت له الأشعار والأحاديث الشريفة والأقوال المأثورة ومن بين الأقوال المأثورة التي تعلق بها تيام (أعبد الناس أعذرهم للناس) فردده إلى أن حفظه.

حدثته عن الحلاج وعن بعض شطحاته وعن أبي حامد الغزالي وعن كتبه: إحياء علوم الدين، تهافت الفلاسفة، المنقذ من الضلال، معارج القدس في معرفة النفس، وعن عزلته وكيف توصل فيها إلى أن التصوف هو العلم الصحيح، وحدثته عن كتب أخرى لأهل التصوف كاللمع لابن السراج، وكتاب الرياء للحارث المحاسبي وغير ذلك من كتب التراث الصوفي.

وأدركت بأن تيام لا يعرف شيئا عن المذاهب والطوائف الإسلامية إذ يرى بأن هناك إسلاما واحدا يمثله شيوخ الطرق الصوفية.

وقرأت له بعض المقتطفات من شعر ابن الفارض وابن عربي وكان يسجل الأبيات التي تروقه ويعيد قراءتها أمامي ليتمرن على النطق السليم بها ولم يكن متمكنا من اللغة إلا أنه كان سريع الفهم لنباهته وذكائه ومن بين الأبيات التي تعلق بها أيضا بعد أن شرحتها له بطريقة صوفية وفككت رموزها قول أحد الزهاد:

غرس الزهد بقلبي شجرة

بعد أن نقى بجهد حجره

وسقـــاها إثرما أودعـــــــها

كبـد الأرض بدمـع فجَّـره

نمت في ظل ظليل تحتها

روح القلب ونحى ضجره

ثم بايعت إلهـــــي وكـــــــــذا

بيعة الرضوان تحت الشجرة

قضينا شطرا من الليل غير يسير في الحديث عن هذه الأشياء التي أقبل عليها تيام في نهم شديد وكأن عالما آخرا من المعرفة انفتح له لرقة علمه وقلة زاده.

وفي صباح غد نهضت باكرا واتجهت لتدريس التلاميذ وفاجأني عمر لاي بالزيارة في ذلك اليوم إلى مقر الدراسة.

كان المقر الذي أدرس فيه عبارة عن مرآب كبير فوقه بناية ضخمة من أملاك الشيخ حولها أرض رملية لم تنجب إلا بعض الشجيرات العجاف من شجر الباؤوباب والجوز الهندي وصنوبرة وحيدة خلف البيت تتحدى نوائب الحدثان، أما التلاميذ فيأتون من بيوتات بائسة متناثرة على ذلك العراء الرملي المقفر كالأشباح الصغيرة التي تقفز وتشب.

انتظرني عمر لاي ريثما انقضى الوقت خارج المرآب وقد أمضى فترة الانتظار في الحديث مع شخص من سكان تلك الناحية.

تفرغت من التدريس وانفض التلاميذ واتجهنا مع ذلك الشاب الأغبر الذي استطاع أن يصنع لنفسه حرفة تدر عليه بعض النقود وقد أقنع عمر لاي بأنه سيقرأ له الحظ فيخبره بما يصادفه في المستقبل فبدا لي وكأنه فيلسوف أو نابغة ضاع في تلك البيئة المجحفة التي تقهر الإنسان حتما.

سرنا معه إلى بيته فأخرج كتابا متقادما في صفحته الأولى جدول لحساب الحروف ومقسما بعدد الأبراج وطلب من عمر لاي ذكر اسمه واسم أمه وقام بعملية حسابية ثم فتح الكتاب وأخبره بأشياء بعضها سار وبعضها محزن وبأنه سوف يسقط في آخر حياته من مكان شاهق وأنه سوف يتعرض إلى ضربة بحديدة حادة.

وبعد أن أنهى الشاب شعوذته ودروشته ناوله عمر لاي بعض الفرنكات، وودعنا ذلك الشاب المشعوذ الذي كان يعتقد بأن ما يقوم به هو علم صحيح لا جدال فيه، وقد حاولت أن أبين له ما في العملية الحسابية من تمويه ومغالطة ولكنه لم يتوصل بفكره البسيط إلى مستوى التعليل، أما عمر لاي فقد راوده الشك إلا أن هيمنة الوهم جعلته يميل إلى التصديق بما سمعه من الشاب.

سرت مع عمر الذي عرج بي مرة أخرى على إحدى الحانات وأثناء الطريق قال لي بالحرف الواحد:

إن سيرابا تذهب للجامعة وتلتقي بشخص أوروبي لعله أحد الأساتذة وتقضي معه وقتا في التجول في ساحة الجامعة.

قلت وأنا أشعر في نفسي بالمالأة: ربما كان هذا الشخص أحد أساتذتها ولا غبار على علاقة التلميذ بالأستاذ.

قال: وقضية الطفل؟

قلت ممالئا مرة أخرى: هذا شك لم يقطع بيقين.

قال: الأمر واضح ولا يحتاج إلى دليل فدع عنك المراء.

قلت: ينبغي أن تطرد عن نفسك هذا الإحساس السيئ.

قال: لا أستطيع.. لا أستطيع.

قلت: إذا لا بد أن يكون لك دليل قاطع فهذه الأمور لا تبنى على الوهم والشك بل تحسم باليقين.

وصلنا الحانة وشرب عمر لاي أقداحا من الخمر ودبت في شراينه نشوة السكر فحركت في نفسه نزعة خيرية فخاطبني قائلا:

لنذهب معا إلى إيطاليا فسوف تحقق ما تريد وستكسب كثيرا من المال والعمل هناك مضمون تأكد من ذلك.

قال هذه العبارات وهو يضغط عل الكلمات بشدة وقد جحظت عيناه واستولى عليه اهتمام كبير بالأمر.

قلت: ربما سأفعل ولكن سأفكر في الموضوع.

قال: لا تتردد أبدا لا بد أن تحضر نفسك من الآن.. ثم انحرف كلامه فجأة ليتركز على سيرابا فقال:

لن آخذ سيرابا معي فهي تخونني وقد وجدتها بنفسي مع ذلك الكلب الأجنبي ولا شك بأنها تزني معه أليس كذلك؟.

وكان لسؤاله هذا وقع شديد على نفسي.

قلت: أنا لا أعرف شيئا عما تتحدث عنه ولا أعتقد أن سيرابا تفعل ذلك أبدا.

فلم يرقه قولي فاغتاظ في داخله وتوترت أعصابه قليلا ثم قال:

أنا شاهدتها بنفسي، إنها عاهرة إنها تهزأ بي عندما تقول إن ذلك الطفل هو ابنك.. إنه يشبهك أنت.. أنت بالذات فعيونه زرقاء ولونه أبيض مثلك.. إنه يشبهك فعلا.. وغرق في هذا الاتجاه حتى صار يخاطبني وكأنني أنا الزاني مع سيرابا وليس الأستاذ.

وأردت أن أخرج من الحانة التي مكثنا فيها طويلا وعلى الرغم من إصراره على البقاء فيها إلا أنني استطعت أن استدرجه إلى البيت فخرجنا من الحانة وهو يمطر سيرابا بوابل من الشتائم وأدخلته إلى غرفتي وهو يرغو ويزبد كالجمل الهائج وسقط على فراشي كالتل الكبير وغط في نوم عميق..

خيم الليل وأشعلت المصباح الذي كان يشع بنور ضئيل وأحسست بالأرق والانقباض فتصفحت بعض الجرائد التي تراكمت عندي في زاوية من زوايا الغرفة وكان عمر يهذي أثناء نومه وكان يهدد ويتوعد وأنا لا أفهم ما كان يهذرم به بالأولوفية.

ازداد شعوري بالقلق فكنت أطل من النافذة بين الحين والآخر ثم أعود إلى الفراش وأتابع قراءة الجرائد بصعوبة على ضوء المصباح الخافت، وأخرج تارة خارج المنـزل، لا شيء سوى السكون والظلام وبعض حفيف لأوراق الصنوبرة العملاقة خلف البيت.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة شعرت بنوع من الاسترخاء بعد قلق وتوتر فغفوت إغفاءة المتوجس، ولم تمر إلا لحظات على إغفاءتي حتى انقض علي عمر لاي وقد شد على تلابيبي بقبضتيه وهو يصرخ في وجهي بعنف ولا أدري ماذا كان يقول فدفعته عن نفسي بقوة وصحت عليه فانتبه وصحا من كابوسه وجلس على السرير واضعا رأسه بين يديه فقلت:

ما بك يا عمر؟.

فرفع رأسه في استرخاء وقال:

كنت في حلم، رأيت كأنني أنا وأنت في إيطاليا نائمان معا في غرفة وصديقتي (أنا) في غرفة وحدها، رأيتك تتسلل نحوها فمنعتك عنها.

قلت: أطرد عنك يا صديقي هذه الوساوس فأنا لن أسافر إلى إيطاليا، نم مطمئن البال فقال وهو يغمغم:

هو مجرد حلم فلا تهتم واستلقى على السرير وغط مرة أخرى في نومه العميق.

أما أنا فلم يغمض لي جفن بعد ذلك وبقيت ساهرا حتى الصباح مفكرا في سيرابا وطفلها وقلت في نفسي:

كان ينبغي أن تتحفظ في سلوكها أثناء وجود عمر لاي بالسنيغال لماذا تتصل بذلك الأستاذ؟ ما سر العلاقة التي بينهما؟ لماذا لا تولي زوجها الاهتمام الكافي؟ ربما لم يكن عمر لاي هو السبب في فتور العلاقة الزوجية وقد لاحظت بعض التعالي منها عليه منذ بداية الزواج.

نهض عمر باكرا نشطا متوثبا تعتريه حيوية فائقة وقال لي:

هل أزعجتك البارحة؟

قلت: أبدا.. أبدا.

قال: معذرة عما صدر مني أثناء الحلم.

ثم ودعني شاكرا وانطلق إلى بيته يغذ السير بخطى واسعة.

خلوت إلى نفسي واستعدت شريط البارحة وبدا لي أن عمر ضحية ولكن ضحية من يا ترى؟ ضحيتي أنا أم سيرابا أم أستاذ الجامعة أم أنه ضحية نفسه حين أقبل على هذا الزواج دون روية؟ أم أن القدر هو الذي منحه هذا الطفل الأشقر الذي سوف يبقى هاجسا بالنسبة إليه ينكد حياته دائما؟.

جالت في نفسي خواطر كثيرة مزعجة وحاولت عبثا تبرئة نفسي إذ أصبح يساورني إحساس عميق بالذنب وفكرت بأن أرأب هذا الصدع فأسعى لأن أوفق بين سيرابا وعمر لاي بشتى الطرق، ولكن ترى هل أستطيع ذلك وعمر لاي لا يزال يتهمني في أعماقه؟ أو لم يظهر ذلك جليا على فلتات لسانه عندما شرب وفي حلمه أيضا ليلة البارحة؟ إن ولده الأشقر سوف يذكره في كل لحظة بجريمتي، ولا تزال سيرابا خائنة في نظره، ترى هل أذهب إلى سيرابا وأكشف لها عما يدور في رأس عمر من شك حولها علها تغير من سلوكها أم أنها ستثور وتظل سادرة في سلوكها تحلم بحياة على نمط غربي متفتح؟ أم أنه ينبغي أن أترك الأمر على حاله وأتحمل حدوث الانفصال بينهما وأنا أحس بأنني طرف فيه؟.

حاولت أن أتصور نهاية سيرابا وهي مطلقة وقد تدمرت هذه الأسرة التي تكونت من مصادفة غريبة جعلني القدر سببا في

حدوثها ووسيلة إلى تدميرها.. تذكرت كلمة تيام عندما قال لي ذات يوم بأنه زواج غير موفق وإن حياتهما لن تستقيم.

وخيل إلي أن تلك الليلة المجنونة التي تأخر فيها عمر لاي هي السبب المباشر في تدهور العلاقة بينهما وغصت في دوامة من الأفكار لم أصح منها إلا على جلبة الأطفال وهم قادمون للدراسة يحملون دفاترهم وقد تجمهروا أمام المرآب ينتظرون أن آذن لهم بالدخول.

تخيلت لو أن بعض هؤلاء الأطفال كانوا شقر الألوان مثل ابن سيرابا عندئذ لن تكون هناك مشكلة أبدا ولن يكون هناك عذاب للضمير، ولم يكن لتلك الليلة أثر مشبوه في ذهن عمر ثم طردت عن نفسي هذا الوهم..

وشرعت ألقن الأطفال الأبرياء دروسهم وبراءتهم لم تزل عن نفسي غشاوة القلق الممض فقررت أن أتوجه إلى العاصمة داكار فأقضي الوقت متجولا في الأسواق والمحلات علني أظفر بشيء من الراحة والنسيان وأتخلص من هذا الهم الذي يثقب الصدر.

كانت العاصمة تغص بالناس تحت الضجيج والغوغاء، خليط متباين من البشر، هناك الأغنياء ورجال الأعمال ببدلاتهم الفاخرة وسياراتهم الفخمة يمرون ولا يبالون بمن حولهم ممن يعانون الفقر والعوز ويصارعون من أجل لقمة العيش فتراهم

يعرضون على المارة بإلحاح بعض الأشياء كالألبسة والصحون والوسائل التقليدية وغير ذلك مما يمكن أن يعرض للبيع.. إنه غليان بشري وصراع عنيف ملحد مع الحياة من أجل البقاء.

وهناك آخرون شيوخ ونساء وأطفال قد استسلموا لقساوة واقعهم فشكلوا جماعات جماعات في الأماكن العمومية باسطين أيديهم طلبا للصدقة وقد أنهكهم الجوع والشقاء، ومنهم من يتحامل على نفسه بعاهته الجسدية وهناك من يزحف على الأرض جوعا وضعفا يلح في وهن على من يمر حوله ليمنحه ما يسد به الرمق ويدفع عنه غائلة الفناء.

واصلت جولتي في قلب العاصمة وأطرافها أتنقل من حي إلى آخر ومن ساحة إلى أخرى ولما اشتد القيظ وصار الجو حارا والشمس حارقة وقد أنفقت قدرا من النقود في شراء أكياس الماء التي تباع في مبردات صغيرة على أرصفة الطرقات بدا لي أن أذهب إلى البحر للاستمتاع بالسباحة تلك الهواية التي أحبها منذ الصغر فقد عشقت البحر منذ سني عمري الأولى حين كنا نسكن قرب شاطئ فرانكو في مدينة رايس حميدو، إذ كنت أذهب إلى الشاطئ كل يوم على الرغم من أن والدي كان يضربني ضربا مبرحا لكي أمتنع عن الذهاب إليه، ولكن تحملت قساوة الضرب ولم أنقطع عنه مستغلا فترة غيابه في العمل، وكانت والدتي هي الأخرى تمنعني فأنكر الذهاب فتأخذ

بذراعي وتذوق بشرتي بطرف لسانها فإن وجدت الملوحة انهالت علي بالضرب أيضا ومع ذلك لم أكد أفرط في الذهاب إلى البحر يوما واحدا.

واتجهت في الظهيرة إلى الشاطئ ولسوء الحظ بدأ الجو ينقلب وتكدرت السماء وغضب البحر فجأة وأزبد وهاجت أمواجه ومع ذلك رغبت في السباحة ودخلت الماء متحديا أمواجه العاتية، توغلت فيه أكثر فأكثر فازدادت الأمواج هيجانا وقررت أن أصل صخرة هناك لم يجرؤ أحد من المصطافين على الوصول إليها ممن كانوا يسبحون في الشاطئ وما أن اقتربت منها حتى فاجأني البحر بهوله فحملتني أمواجه الطاغية عاليا وضربت بي على تلك الصخرة المسننة بنتوءات حادة كالخناجر وأخذتني الأمواج في مدها ثانية وصفعت بجسدي جدار الصخرة الكبيرة وشعرت بالوهن والتعب وفقدت المقاومة وسبحت مستجمعا كل قواي وابتعدت قليلا عن الصخرة إلا أنني لم أستطع أن أغالب الأمواج وبدأ البحر يبتلعني شيئا فشيئا.

تيقنت من الهلاك غير أن سباحا ماهرا ألقى بنفسه في خضم الأمواج في هذه اللحظة وجاء لإنقاذي ومد إلي يده وصار يجذبني في حذر من أطراف أصابعي إلى أن وصل بي إلى الشاطئ وأنا في آخر نفس وقد امتلأ بطني ماء وكان أثقل من الرصاص.

يومها فقط خيل إلي أن الطبيعة تأمرني بأن أكف عن المجازفة.

ترى هل أن رغبتي في سيرابا تشبه رغبة المغامرة في البحر؟ ما الجدوى في أن أحب سيرابا؟ إلى أين تقودني هذه العاطفة الجامحة تجاهها؟ إنها عميقة كبحر لا شاطئ له، بحر مليء بالأسرار والمفاجآت، ولكن تيار جاذبيتها يغريني بعالم رائع ومجهول، واكتشفت غدر البحر الذي حملني في أغماره بين يديه ثم رماني بقسوة على الصخرة المسننة..

صوت سيرابا يشبه سقسقة أمواجه حين يكون هادئا وغامضا..وعيونها الفستقية العميقة تنادي بالغرق..

ترى كيف أقاوم سحرها وإغراءها؟.

جنون المغامرة لا يزال يسكنني، رغبة الإطاحة بالأسوار والمتاريس لا تزال تتملكني، لا تني تدفعني نحو عوالم سيرابا.. سيرابا هي لون إفريقيا الهادئ والداكن والمتوحش في آن واحد، أنغام صوتها الحافل يشبه أغنية لسرب طيور مغرد في غابة منج ملتفة، داخلني الآن إحساس غريب، شعور بالخوف من المستقبل مع سيرابا، ربما كانت مجازفتي مع البحر سببا في هذا الشعور، ومع ذلك لا زالت عواطف الشوق تحملني نحوها، قوة مجهولة متفجرة بداخلي لا طاقة لي على السيطرة عليها تجعلني لا أرعوي عن حبها، أشعر أنني منجذب إليها كما انجذبت للوصول إلى الصخرة الكبيرة في وسط البحر في رغبة لا تفسير لها، تلك الصخرة التي ليس حولها إلا الأمواج والتيارات

المفاجئة نعم ربما هي كتلك الصخرة قاسية وجافة، أشعر أحيانا أنها كذلك عندما تتعامل مع عمر لاي أو مع الناس وحتى معي.

مر حوالي أسبوع لم أر فيه عمر وعلمت بعد ذلك أنه سافر إلى إيطاليا وأحسست مرة أخرى بأنه لا يزال يتهمني ويشتبه بي، فهذا التصرف منه ينم عن شيء في صدره بل عن جرح غائر في أعماقه، ترى هل أن تصرفه هذا ناجم عن حب وغيرة تجاه سيرابا فقط أم أنه سوف ينتقم مني ذات يوم؟ غصت عميقا لمعرفة نفسه فرجعت بذاكرتي إلى البداية واستعدت لحظة لقائه بها، يومها كان ميله إليها سريعا لم يكن يلتقي بها كثيرا قبل الزواج على الرغم من أنه كان يزورها في البيت وأغرته بجاذبيتها كما أغرتني تماما، فهي تبدو امرأة صالحة للزواج وربما غطت أنوثتها المثيرة جفافا حادا في مشاعرها فضلا عن سحرها الغامض مما جعل منها لغزا مبهما، وقد أقدم عمر لاي على الزواج منها في ظرف قصير لما لها من تأثير قوي على الرجل إلى أن ارتطمت مشاعره التي انجرفت نحوها بحقيقة طبيعتها المتصلبة.

أما أنا فقد سلبتني فعلا غير أني كنت أشعر في أعماقي بأنها لا تتعاطف بسهولة مع غيرها إلا أنني اعتبرت ذلك نوعا من الترفع والكبرياء الذي قد يزيد من جاذبية الأنثى وإغرائها، لم أرها مرة تلين تماما أو تتخلى عن ذلك الشموخ الراسخ في أعماقها إلا أن تلك الليلة التي تشظى فيها كيانها انفجرت

بطقوس عاصفة، ومنحتني حين تشظت في ثورة شبقية السفر في أبعادها وأقطابها الأنثوية اللامتناهية.

لم يظهر على تيام أنه كان يشتهيها، ولكنه كان يحتفل أنسا حين تزوره أو يزورها في بيتها فيقضي معها وقتا طويلا، وأدرك أنه كان يرتاح إليها تماما، تخطر له فيزورها ويصلح من هندامه قبل التوجه إلى بيتها ويحملق في المرآة ويمشط شاربه ويثبت طربوشه التركي على هامته بعناية ويتحفز بشكل غير طبيعي ثم يستحثني للذهاب معه ويطول الحديث بينهما ولا أفهم فيعتريني نوع من الانتقاص وأشعر بالعبثية واللاجدوى.

وفي كل مرة نزورها أجد عيسى بن سيرابا يدرج في الغرفة يحمل لعبه التي وفرتها له أمه، وقد ألفني الطفل والتصق بي بشدة يحدثني بالأولوفية فلا أفهم ما يريد، ولكنني أشاركه اللعب فينشرح أكثر ويمتلكه الجذل، كان فيه غموض سيرابا ولا ينتهي له كلام ولا يتوقف عن الحركة، وتارة يبرز فيه طبعة الزنجي فيرقص حين يضرب بلعبة من لعبه ضربات متناغمة على السرير وتارة يبدو لي بطبع شمالي حين يتعامل مع لعبه بحذق ومهارة.

مرت أيام وسيرابا على حالها تعيش في المجهول ولا يبدو عليها أنها متزوجة لولا ذلك الطفل الذي يتبعها أو تسنده إلى صدرها حين تخرج إلى الحي وتتحدث كعادتها مع النساء والرجال، لم يغير الزواج من طبعها ولم تستكن لطقوسه وقيوده.

أرسلت إلى تيام ذات يوم تخبره بأن طفلها مريض وأنه يعاني من حمى شديدة فنهض لتوه وتوجه إلى ذلك الرجل الساحر وجاء من عنده بالدواء الناجع.

عالج تيام عيسى بعناية مركزة وكانت الحمى تخف عنه تارة وتشتد عليه تارة أخرى فيسبل الطفل جفونه الصغيرة وتارة يفتح عينيه فيبدو بياض مقلتيه وهو في غيبوبة تامة، كانت سيرابا قلقة عليه فلا تفارقه وتنحني عليه بعاطفة الأم الرؤوم فتقبله وتضع يدها على جبينه.

ربما هذه هي سيرابا الحقيقية هي الآن منكسرة الوجدان، ترى لو كان عمر لاي حاضرا ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ كيف يكون رد فعله إزاء ولده المريض والموت يناوشه؟ هل ستتحرك فيه عاطفة الأبوة أم أنه يتمنى رحيل الطفل؟

أما أنا فقد أشفقت على سيرابا وتمنيت أن تعود للطفل عافيته، ولكن حالته كانت تزداد سوءا ساعة بعد ساعة، وأشرت عليها أن يأخذاه إلى الطبيب.. وبقيت أنتظر تيام الذي لم يغادر بيت سيرابا ومكث طويلا عندها وهو يواسيها ثم عدنا معا إلى المنـزل وتركنا سيرابا ساهرة على طفلها مع أمها العجوز التي بدت عليها الحيرة هي الأخرى ولكنها كانت رابطة الجأش.

عدنا إلى البيت ونحن نشعر بأن الطفل في خطر وأنه من الواجب أن نقف مع سيرابا في هذه المحنة القاسية، وقلت لتيام لابد من أخذ الطفل إلى طبيب ولا نعتمد على دواء الساحر.

وفي صبيحة الغد توجهنا إلى بيت سيرابا فوجدنا الطفل قد صحا وانقشعت عنه سورة الحمى فسرت سيرابا وأمها واطمأن تيام الذي ظهر في هذه الساعة وكأنه الحكيم الذي كان سببا في خلاص الطفل ونجاته، وتبدلت لهجة سيرابا فتماسكت وعاد إليها العنفوان وعادت إليها قوتها وغموضها وألق الغبطة يتلألأ على وجهها الأسمر المخروطي ولاحت من عيونها أشعة من الأمل الطافر.

ازداد غموض سيرابا بالنسبة إلي من خلال هذا الامتحان العسير حيث بدت لي أثناء انكسارها امرأة يغمرها الدفء والحنان كيوم صيف إفريقي ماطر، بدت لي ببسمتها وبلونها الأسمر الداكن وكأنها أحسن امرأة في الوجود.

أي عالم تشكله لي هذه المرأة؟ كم هي رائعة وغامضة وغامرة بالأسرار. الآن وقد اطمأن تيام على الطفل ودعنا سيرابا وأمها وقفلنا راجعين إلى البيت ومنذ تلك الحادثة وسيرابا لم تنقطع عن زيارة تيام وحدثت بينهما علاقة من الود المتبادل أكثر من ذي قبل.

وذات يوم أقبلت سيرابا إلى بيت تيام تحمل ورقة الطلاق التي جاءت من عمر لاي (أنت طالق انتهى ما بيننا إلى الأبد وليذهب كل منا في سبيله).

لم تتأثر سيرابا بنبأ الطلاق، وقالت في تحد باللغة الفرنسية:

ربما هكذا أحسن مع أن علامات التوتر قد رسمت على وجهها خطوطا صفراء تماوجت عبر سحنتها الداكنة.

أما تيام فقد استقبل الخبر ببرودة تامة وقال موجها إلي الكلام:

ألم أخبرك بهذا منذ البداية؟!.

قلت: بلى، ولكن عمر لن يجد امرأة مثل سيرابا أبدا.

قال: هو لا يستحقها وقد كنت أعرف نذالته.

قالت سيرابا: لا يهمني الأمر يكفيني ولدي في هذه الحياة.

وبعد أخذ ورد في الموضوع، وقد دار الحوار باللغة الأولوفية التي أدركت شيئا منها والعربية والفرنسية، قامت سيرابا لتعود أدراجها ممسكة بيد طفلها وأحسست بأن القدر بدأ يرسم لها خيوط الشقاء.

مرت أيام وبدأت الأحاديث والشائعات تروى عن سيرابا التي لم يجرؤ أحد في يوم ما أن يذكرها بسوء، والآن أصبح كل الحي يتهمها بأنها حملت من أحد الأجانب وهي متزوجة وولدت منه هذا الطفل المشبوه ذا العينين الزرقاوين والشعر

الأشقر، وأحست سيرابا بما يروج عنها فبكت بدموع سجام والتزمت البيت وواساها تيام في محنتها ودافع عنها في غيابها، وقد حاول قطع الألسنة التي تسلقها.

أما أنا فلم أدخر جهدا في التخفيف من ألمها وقد ساعدني وعيها وثقافتها بأن أغوص معها في عمق القضية ونجحت إلى حد بعيد فأخرجتها من عزلتها التي ضربتها على نفسها على الرغم من الصدمة العنيفة التي تلقتها ومع ذلك كانت على يقين بأن اللعنة سوف تطاردها إلى الأبد ما دامت تعيش بين أناس جهلة قساة وجارحين وسيكون طفلها عرضة للسهام عندما يشب ويكبر.

أدركت سيرابا أن حياتها أصبحت جحيما في هذا الحي الذي تنكر لها وقلب لها ظهر المجن.

وبعد أيام فاجأني تيام بزيارة إلى منزلي، وأخبرني بأن الشيخ الأكبر يدعوني إليه وهو يريد إرسالي إلى إيطاليا في مهمة إلى محمد، كدت لا أصدق النبأ.

وقال لي تيام: إن الشيخ صار يطمئن إليك تماما وسوف تفتح لك الأبواب.

اتجهت معه على الفور إلى الزاوية والفرحة تغمرني، دخلت على الشيخ الذي استقبلني بحفاوة تامة وخاطبني قائلا:

أنت الآن كواحد من أهلنا ونحن نثق فيك ولدي بعض الوثائق أريد أن تبلغها إلى محمد في إيطاليا لتعود إلينا بعد أسبوع.

قلت: هذا شرف لي منك عظيم وشكرا على الثقة وسأقوم بالمهمة إن شاء الله.

منحني الشيخ مبلغا من المال لشراء ما يلزمني وقال تهيأ للسفر غدا.

قررت أن أزور عمر لاي هناك في إيطاليا، فأحاول معه أن يتراجع عن قراره في الطلاق بعد أن أجسد له المأساة التي تركها وراءه وأخذت العنوان من سيرابا دون أن أخبرها بما نويت.

وفي صبيحة الغد كنت على أهبة الاستعداد للسفر فأوصلني الشيخ بنفسه إلى المطار برفقة تيام.

وبعد ست ساعات من الرحلة نزلت بنا الطائرة في مطار روما وقد وجدت محمدا هناك بانتظاري..

شقت بنا السيارة شوارع روما وأضواء المدينة العريقة تكشف سحرها العتيق من خلال المباني الضخمة والجسور العظيمة.

كان محمد يسكن في شقة عالية بإحدى العمارات في شارع ليوناردو دافينشي مؤثثة ومجهزة بكل ما يحتاج إليه من وسائل الحياة الكريمة.

سلمت الظرف الذي يحتوي الوثائق إلى محمد ففضه أمامي وأخرج منه مجموعة من السندات والملفات وتصفحها بعناية واهتمام وقضينا الليلة ساهرين، تحدثنا خلالها في أمور كثيرة عما تقوله الصحف في السنيغال عن الشيخ عن أحوال الناس وعن أتباع الزاوية، حدثته عن عمر لاي الذي لم يكن يعرفه ورويت له قصة زواجه من سيرابا وطلاقه لها والمأساة التي تعيشها الآن هناك.

أدهشتني روما تلك الليلة بجمالها الأخاذ وأنا أطل من شرفة البيت على تلك المدينة العتيدة التي تحكي أسرار الإمبراطورية العظمى منذ قرون وتذكرت كيف كان سباق العربات يثير حماس الجماهير الغفيرة هنا.

تذكرت وصف المؤرخين لروما التي تهتم قديما بالألعاب والاستعراضات الرياضية الكبرى كمسابقات ركوب الخيل وألعاب القوى في السرك، تخيلت كيف شاع عنها بأنها تخرج عن بكرة أبيها للذهاب إلى السيرك فلا يبقى فيها أحد فقال أحد كتابها معلقا "روما كلها في السيرك".

تذكرت من خلال الأفلام التاريخية معارك المصارعين في المدرجات التي تنتهي دائما بالمشاهد الدرامية، واستعرضت في ذهني ما حملته ذاكرتي من تاريخ مدينة روما منذ القدم حين كانت عبارة عن امبراطورية شاسعة تمتد إلى إنطاكية ومن

تاراجون إلى قرطاج وقد بقيت تلك الأسرار مطوية في قلب المدينة العظيمة التي تبدلت معالمها الآن، هكذا وصفها أحدهم وقد تلبسني ذلك الوصف الذي علق بذهني تماما وهو يتداعى من ذاكرتي أثناء تلك اللحظات التي كنت أطل فيها من شرفة البيت على مدينة روما العريقة.

وفي صبيحة الغد تناولنا وجبة الفطور في إحدى المقاهي في شارع
(ليوناردو دافينشي) واتجهنا إلى المحل التجاري الكبير الذي يديره
محمد.

كان محلا عظيما يزخر بالمعدات والآلات الفلاحية الضخمة يرتاده أشخاص أثرياء يخاطبهم محمد باللغة الإيطالية في طلاقة تامة.

أخذني محمد في سيارته إلى المزرعة التي يعمل فيها عمر لاي وهي تبعد عن روما ببضعة كيلو مترات وتسمى مزرعة بيللى باتجاه مدينة نابولي.

وصلنا إلى المزرعة فقيل لنا إن عمر لاي قد غادرها منذ مدة فرجعنا إلى روما وقد فقدنا الأمل في لقائه.

قضيت أياما ممتعة في إيطاليا بصحبة محمد الذي طوف بي في أرجاء مدينة روما وضواحيها وقد زرنا بعض أصدقائه السنيغاليين المقيمين هناك.

انقضت تلك الأيام التي لم أذكر فيها سيرابا إلا لماما عدت بعدها إلى داكار وقد راقتني روما كثيرا بمناظرها الجميلة وتاريخها العريق..

وتوالت الأيام في السنيغال ثقيلة راكدة، وأصبحت لا أطيق تدريس التلاميذ الذين انتظروا قدومي بفارغ الصبر.. شعرت بالقهر يتسرب إلى عزيمتي.. حاولت استعادة الأحلام الماضية دون جدوى..

توفيت أم سيرابا بعد مدة بشلل نصفي أقعدها عن النطق أياما، وراح تيام ليلة وفاتها يتلو عليها سورا من القرآن الكريم، وقد جثم طيلة الليل أمام جثمانها المسجى كالتمثال القابع الحزين وشفاهه تتمتم بمناجاة الغيب وهو يغمض عينيه ويفتحهما أثناء استغراقه ويجهر بالتلاوة والدعاء عندما يتنفس الصعداء بين الحين والآخر، ولم يحضر في تلك الليلة إلا قلة من عجائز الحي، ومع ذلك فإن سيرابا كان يبدو عليها نشاط غريب، وصمت يشبه اليقين أو الإلحاد.. وشيعت العجوز في صبيحة اليوم التالي إلى مثواها الأخير بعد أن صلى عليها تيام في جمع من شيوخ الحي بينهم (أوسمان) في ساحة مسجد واكام.

مضت أيام على وفاتها وأصبحت سيرابا تتغيب عن الحي لفترة طويلة وعرفت أنها تقضي تلك الفترة مع أستاذ الفرنسية.

انطفأت مصابيح بيت سيرابا، وغدا مهجورا في معظم الليالي وصرت أشعر بفراغ رهيب ولازمني القلق والملل بشكل مريع.

صادفتها مرة عند مدخل الحي ولمحت تغيرا جذريا في نفسها وكأن السر الغامض الذي كان يسكنها قد انسلخ عنها تماما بعد وفاة أمها وصارت أشبه بفتاة مراهقة مقبلة على الحياة في انطلاق وحيوية وبدت واضحة وساذجة ووقحة أيضا.

أخبرتني أنها تزوجت من أستاذها بيير وأنها سوف تسافر بطفلها معه إلى فرنسا بعد أيام قليلة.

غادرت سيرابا أرض السنيغال مخلفة وراءها نكهة أبدية لا تزول تطلع من أشجار المنج الوارفة وصوتها الأبح يتردد في أجواء واكام متناغما مع حفيف أوراق الأشجار وازدادت نفسي انقباضا مع الأيام وأطبق علي يأس داهم كالموت، وفكرت في الرحيل إلى الوطن بعد أن توارت سيرابا إلى الأبد، وأمسيت أتجرع الحزن في كل حين.

وتساقطت الأيام في فلك الزمن ببطء شديد حبلى بالمآسي والغيوم، وأصبحت نفسي تشبه الكهف الذي يتداعى خربا متهالكا على نفسه.

في عيوني سراب يمتد يموج بالقلق والرتابة وقد فقدت كل الأشواق والأحاسيس الجميلة.. ترى أين زرقة السماء اللازوردية؟ أين رائحة المنج وخضرته الزاهية؟ صمت آذاني عن سماع حفيف أشجار الباؤوباب واستحالت السمرة العنبرية الإفريقية إلى طقوس شاحبة ترابية امتزج فيها الصمت والسواد والغربة والذكريات القاسية الممزقة.

أشعر بأن روحي قد عبرت إلى كون آخر مختلف تنعدم فيه الأشياء والأجسام وقوانين المادة تعروه أمواج غيوم مشتعلة وتتشكل فيه أشباح من تلك الغيوم، تولول بالهلاك والثبور تمر بسرعة الضوء مصدرة أصواتا مزعجة تهز الأعصاب وترعش الأوصال وأصبحت لا أحس بكياني.. ترى أين أنا؟ لم أستطع العودة إلى العالم الحقيقي.. هل أنا في عالم العدم؟ كيف انتقلت إلى هذا الوجود العدمي فتارة أشعر بهيكلي كسفينة تائهة، وتارة أحس بأنني كهيولى شبه جامدة تطفو في ملكوت آخر.. ثم تتماهى لتشكل جزءا من عالم العدم.. وحينا آخرا أشبه الغبار أو الرماد الذي يحل في كل شيء من ذلك العالم الغريب.. نسيت البداية والنهاية.. حاولت أن أبدأ من البداية فلم أستطع، حاولت أن أشكل نفسي من النهاية وأعود إلى البداية فلم أستطع.. ترى أي عالم هذا الذي أنا فيه؟ ترى هل سأبقى في هذه المرحلة البرزخية أم ستأتي طقوس أخرى وأنا أحس بأنني أرحل

كالكوكب الذي يجري ولا مستقر له وسط مجرات عملاقة مبحرة نحو اللامنتهى؟ ترى هل أنا في برزخ بين الوجود والعدم، أم أنا راحل إلى فضاء سرمدي لا رجعة منه ولا أدري المصير؟ أسير لا أدري إلى أين بروحي أم بجسدي لا أدري.

أحاول أن أقبض على خيوط الوعي.. أحاول أن أتمسك بأجنحة اللحظة المهيمنة لأوقف القوة التي تحملني إلى مصير مجهول.. صرت بلا أيد ولا أرجل.. إنما كائن آخر صاغه الذهول وشكلته نواميس العدم.. وتمر سيرابا بخاطري رغم المصير الذي يحتويني.. نعم ها هي سيرابا تسبح مع الغيوم باسمة إنها تظهر هنيهة ثم تغيب.. أحاول الهروب نحوها ولكن أمواج العدم العاتية تحول بيني وبينها.. إنها تارة هنا.. وتارة هناك تقترب وتبتعد.. لم أستطع أن أعد مسافات الزمن حتى غابت ملتفة بطيات الغمام في المطلق اللانهائي.. وشعرت بشيء يلمسني.. بيد تربت على كتفي.. واستفقت من ذلك الإغفاء أو تلك الغيبوبة لأجد تيام أمامي.. وقمت مذهولا لا أداري أين أنا.. واستعدت وعيي شيئا فشيئا وقد خارت قواي والعرق ينضح مني، وطفقت أتحسس جسدي بكلتا يدي غير مصدق بأنني عدت إلى هذا العالم.. إلى وجودي الحقيقي.

ثم استويت على أقدامي.. ورجعنا إلى الحي من تلك الغابة المجاورة التي استلقيت فيها للإغفاء تحت شجرة قد انسحب

ظلها عني أثناء غيبوبتي فلفحتني الشمس بحرها الحارق وعاد بي تيام إلى البيت فمهد لي فراشا.. ووضعت ماري أمامنا صفيحة من الأرز وحساء سمك.. ولازلت أشعر بالإرهاق وببعض الآلام في أطرافي، وبنوع من الخمود في ذهني.

إنها غيبوبة مذهلة تشبه السفر إلى عالم ميتافيزيقي كانت سيرابا حاضرة فيه بروحها وجسدها.. أصبحت سيرابا جزءا لا يتجزأ من كياني، وغدت الذكريات لا تعللني ولا تواسيني.. ترى كيف أواصل الحياة من دونها؟ كيف أقاوم هذا الهوس وهذا الجنون وقد رحلت بعيدا واختارت مصيرها بنفسها ولا أمل في عودتها؟

وبدأت أبحث عن حل يخلصني من هذا الحب وهذا الطوفان الذي ربما سيودي بي ويوردني مورد الهلاك.. وكان لابد أن أفكر في طريق آخر ينسيني ذكرى سيرابا التي حلت في كياني.

إنه طريق التصوف الذي ربما أجد فيه بعض العزاء أو أجد فيه ملجأ عاصما لروحي من هذا العذاب الأبدي..

لابد أن أنتسب إلى إحدى الطرائق الصوفية على الرغم من أنني خضت فيما مضى عالم التصوف.. وخرجت منه على قناعة بأنه مجرد هوس وتيه.. ربما لم تكن نفسي في ذلك الوقت رقيقة شفافة فلم أتأثر بأفعال الصوفية بقدر ما تأثرت بأقوالهم التي

تشبه العوالم الشعرية أو تشبه الحكم الروحية الوهمية، لم أتأثر بسلوكاتهم التي بدت لي خاطئة والتي منعتني من الوصول وحجبت عني ما يراه أهل التصوف.. لقد غصت في بحار الصوفية إلى أبعد مدى، ولم أنجذب بحقيقتي إلى طقوس التصوف وكأن مانعا يمنعني كلما أوغلت فيه وخيل إلي أنني أدمر ذاتي بممارسة تلك الرياضات واتباع تلك المصطلحات، وكنت أحس بأنني مرتبط بالعالم السفلي ومنشد إلى التراب أكثر، فنزعت الخرقة البالية ومع ذلك فإن حب سيرابا وهو تصوف أيضا يأسرني.. ويدمرني بشكل رهيب في آن واحد.. لا يزال عالمها يجذبني.. يحتويني لا يوجد أمامي سوى طريقين.. إما أن أواصل طريق حب سيرابا وهو طريق مجهول غامض مبهم أو أنخرط في عالم التصوف الحقيقي واخترت طريق التصوف مرة أخرى.. وهمت أبحث عن الخلاص.. فبدأت بزيارة المشايخ وفي كل مرة يتجلى لي خطأ يكون بمثابة الحجر العثرة فصرت أدخل طريقة وأخرج من أخرى، ثم حاولت أن أشق طريقا خاصا في التصوف لأعيش في عالم صوفي وحدي دون الاقتداء بشيخ ولكن هذا الطريق أيضا كانت تشوبه عقبات فلم أستطع الانتصار على نفسي ونازعتني الرغبات فلم أتقدم خطوة واحدة إلى الإمام.

ثم ما لبثت أن انزلقت بعد ذلك لأعيش في عالم تافه مبتذل، وخالطت الطبقات الدنيا من مجتمع السنيغال، وعشت على السطح فعبثت كل العبث وسلكت مع الشيطان طرقا لا تحصى، وقد تعاودني الذكرى أحيانا إلا أنني كنت أنسى أو أتناسى دنيا سيرابا، ومع ذلك لم أستطع التخلص من طيفها الذي يمثل أمامي في كل وقت ويجتاحني القلق واليأس والدمار.. وبدأت تراودني فكرة الانتحار.

ترى هل أصبحت لا أصلح لشيء، لا للحب ولا للتصوف ولا حتى للحياة العابثة؟ أليس الأجدى أن أرحل عن هذا العالم لأستريح إلى الأبد؟

يا لها من دوامة مرعبة تقذف بي نحو الموت! وعلى غير موعد يقبل علي تيام ولمحت عزما واهتماما في إقباله، وطلب إلي أن أقرأ له رسالة جاءته من سيرابا بالفرنسية.

وشعرت بهزة عنيفة، فحاولت أن أسترد الأنفاس وفعلا استطعت أن أربط جأشي وقرأت فيها مايلي:

"سلام أيها الصديق العزيز، أتمنى أن تكون في صحة وعافية أنت وماري وجميع أفراد الحي، أنا أعيش الآن حياة قلقة، لا شيء كالحياة في واكام، أنا على خلاف مع زوجي، وأعيش الآن وحدي مع ابني عيسى، ولست أدري ماذا أفعل.. ربما سأعود.. أخبرني عن صديقك الجزائري، بلغه سلامي وتحياتي.. سيرابا".

هزني فرح عارم، إلا أنني تمالكت نفسي خشية أن ألفت انتباه تيام.

وتأثر تيام أيما تأثر، وعزا سبب شقاء سيرابا إلى عمر لاي الذي خانها، وقرر أن يكتب رسالة إلى سيرابا يواسيها فيها ويشد من أزرها، وفي المساء وجدته قد أحضر ظرفا وورقة وقلما وأملى علي رسالة ضمنها مايلي:

"سيرابا.. أعرفك امرأة عاقلة وناضجة ومثقفة أيضا وشجاعة كذلك ولابد من الرضى بالقدر فلا تحزني أبدا فإن الله قادر على إنقاذك.

حاولي أن تفكري في العودة إلى أرض الوطن لتبدئي حياة جديدة بين أهلك وأصدقائك، أخبرك بأن صديقي الجزائري لا يزال هنا وهو يبلغك السلام، وقد بلغته سلامك ويتمنى أن يسمع أخبارك السارة نحن في انتظار عودتك قريبا.. تيام".

صرت بعد رسالة سيرابا إنسانا آخرا راودني أمل قوي بحياة جديدة صرت نشطا وقويا أيضا وازددت حيوية وعنفوانا ودبت الحياة في الكائنات التي كنت أراها خامدة وميتة فهذا بيتها تهتز جدارنه فرحا ومسارب الغابة تنتظر وقع خطى اللبؤة المسافرة ونكهة ثمار المنج في حلقي عاد إليها طعمها الأول ومجالس الشاي المعطر تهفو إلى صوتها الأبح وضحكاتها التي لها أزيز ينفذ إلى أعماق النفوس فيملأ الأجواء.

أمشي ودروب الحي تبشرني بعودتها وحفيف الأشجار يعيد إلى مسامعي أغنيات الصيف الإفريقي الذي يضوع برائحة المنج المعطر ورائحة سيرابا.

سيرابا لقنت أطفال السنيغال معنى القوة والصبر.. معنى الشهامة والطيبة علمتهم معنى المواقف الجميلة.. وهي تصادفهم كل يوم في دروب الحي.. تصافحهم.. تقابلهم بالبشاشة واللطف.. تضمهم وتقبلهم بشفاهها العسلية.

صداها في ذاكرة الأطفال لا يزول أبدا.

أذكر ذات يوم وقد همت أن تخرج ثديها البض لأحد الأطفال الرضع الجائعين.. ولكنها لم تكن مرضعا في ذلك الوقت وتأسفت. وكان لهذه اللقطة الإنسانية وقع لا يمحى من ذاكرتي أبدا.. وعلى الرغم مما أصابها من بلاء في الحي إلا أن الجميع يحنون إليها رجالا ونساء أطفالا وشبابا...وكلهم ينتظرون عودتها إلى واكام.

ربما تأتي ذات يوم متلثمة بالغمام تهبط مع الريح أو مع المطر تأتي مع الخصب والنماء.. فتعود لأزهار (الكوكو) الذابلة ألوانها الزاهية.

ربما تأتي مع أسراب الطيور المهاجرة نحو نهر السنيغال.

ربما تأتي مع أدعية هؤلاء البسطاء الذين يعيشون خلف الستار.

أو تأتي لتطرق الأبواب مع أشواق الأطفال المتلهفين.

أو تأتي مع حلم العذارى الحالمات في البيوت.

أو تأتي ملتحفة بأمواج الأطلسي عندما يثور في موكب مع عرائس البحر القادمات من شمال البرتغال.

آه من ذلك الانتظار الحارق! من تلك اللحظة التي تنـزل فيها فيعرش صوتها بين المروج والأدغال!.

سيرابا هناك.. وهناك أنا.. سيرابا أم أنا تداخلت المدارات والخطوط.. وطويت مسافات الزمن.. واتحدت الروح بالروح سيرابا الآن في أحشائي بين ضلوعي وأغوص بذاتي في ذاتي ويتحد كنهها بكنه كنهي وتسطع أشعتها في أشعة أشعتي ويفني جوهري في جوهرها فناء مطلقا وتصبح سيرابا هي جوهر الكون المطلق فأنا أسمع صوتها في عصف الأعاصير وفي زمجرة الرياح وفي ارتجاف زخات المطر وفي هدير البحر..

أنت هنا سيرابا..وقد عدت إلى البداية.

فها نحن واقفان أمام فناء بيتكم تناوليننى صورتك لتبقى ذكرى معي حين أعود إلى البلد.. الحاضر يحتفل بالماضي وماضيك حاضر في الآن بكل تفاصيله الدقيقة فالليالي تعيد إلي شريط السهرات في بيتكم وأشعر بكهربة تشعل دمي حين تمر تلك الليلة في مخيلتي.. ليلة الإغفاء ليلة الزلزال الأكبر الذي أصابنا معا، فاهتزت جدران المنـزل من أساساتها وارتجت

سقوفه وخرجت تلك الليلة حاملا على عاتقي إثم الخطيئة ونعمة الغفران.

حاولت نسيان الماضي وتطلعت إلى المستقبل ناظرا قدوم سيرابا.

وبعد أيام جاءتني رسالة من سيرابا عن طريق تيام وهالني ما وجدت فيها من بوح "لقد ارتبطت بعمر لاي دون حب أو ميل نحوه وقعت تحت ضغطه دون وعي مني ودفعت الثمن غاليا وتزوجت بأستاذي (بيير) بدافع الإعجاب ولم أكمل سنتي الجامعية الأخيرة وعشت تحت غواياته وقد رسم لي مستقبلا مغريا في فرنسا وتدمر ما تبقى من آمالي وحياتي عندما اصطدمت بالوهم، وأنا الآن أدفع ثمنا غاليا جدا مرة أخرى، لقد أصبحت وحيدة مع ابني عيسى وقد غاب بيير تماما وأوشك أن أرفع قضية ضده بعد أن أتم بعض الوثائق اللازمة، سوف أتصل بك دائما، وربما سنلتقي ذات يوم".

أحسست بجدار نفسي يتداعى وأنا أتلو رسالتها، صرت كالشبح المجنون الذي يطوف في كل منحنى لا ألوي على شيء.. تمزقت حتى العظم، خانتني القوة والعزيمة واستعصى علي الحل ولم أجد سوى تيام لأبث لديه بعض معاناتي وتحاورت معه في موضوع سيرابا ومدى معاناتها في الغربة ثم قال لي:

– سوف أذهب إلى ذلك الحكيم الذي يستخدم الجن وهو قادر على أن يعيدها إلى هنا في أقرب أجل وسوف ترى ولعلك لا تصدق بهذا.

وذهب تيام إلى الرجل المشعوذ فكتب له كتابا أخفاه في شق جدار من بيت سيرابا القديم ومكث ينتظر تأثير الجن.. وانشغل فكره بسيرابا.. ربما كان وجودها في واكام يملأ عليه جانبا من الحياة فقد كان لا ينقطع عن زيارتها في بيتها.. ويجلس إليها لساعات طويلة وخاصة قبل زواجها من عمر لاي.. هناك شيء في نفسه لم أتبينه.. لم يبح بشيء آخر سوى أنها تستحق المساندة.

لم أنتظر بعد وصول رسالتها إلي حتى كتبت إليها على الفور أواسيها وأبث إليها بعض أشجاني وكدت أن أصارحها بما يعتلج في صدري من نوايا وخواطر وخفت أن أفاجئها بما لم يكن في حسبانها واكتفيت بالإشارة وفتحت لها المجال لعلها تقترب أكثر أو تطارحني بما تخفيه حقيقة وراء تبريرها في الرسالة لزواجها من عمر لاي ومن الأستاذ بيير.

حاولت أن أقرأ ما بين السطور لأستشف ما يروي غليلي إذ لم تصارحني كل الصراحة وربما تلك هي كل الحقيقة وتلك هي حدود صراحتها ولعلي أطلب المستحيل منها أو أني أتوهم أن هناك حقيقة أخرى تخفيها سيرابا في أعماقها.

ويداهمني الآن حس غريب فهي بعد أن أخفقت في حياتها الزوجية مرتين، تقترب مني.. أشعر بها لاجئة لقلب كان دافئا ذات يوم.. أحس بشيء يتلاشى في داخلي بشيء كان يضغط على نفسي بقوة وهو الآن يتبدد.

ترى كيف تسرب إلي هذا الشك الآن؟.

أخشى أن يدمر كل شيء.. أن يعصف بتلك الأحاسيس التي ما شعرت في حياتي بأنبل منها.

أي قدر هذا الذي ما فتئ يرميني من مجهول إلى آخر ويقذف بي من تيه إلى تيه.

ولكن مع ذلك سوف أثابر إلى النهاية.

مرت الأيام ولا يزال تيام متشبثا بفكرته منتظرا أن يأتي بها الجن أو يجعل الجن قلبها يخفق بالعودة فتعود..

بين سيرابا وهذا القلب العالق بشباكها وطن ينازعني بالعودة إليه في كل وقت، وطن أشرقت عليه الشمس من جديد وانقشعت عنه غيوم الفتن والإرهاب.. اشتقت إلى تلاله وجباله.. إلى صحرائه ورماله.. إلى نخيله وزروعه.. عائد إليك أيها الوطن وفي يدي سنونوة سمراء.

لم تفصل سيرابا بقرار العودة إلى السنيغال ولا يمكن أن أفعل شيئا الآن وعلي أن أنتظر وشاع في الحي نبأ رجوع سيرابا وأرجفت النساء بيوم قدومها.

وفي رسالة ثانية أرسلتها إلي سيرابا : هل تنوي البقاء في السنيغال أم أنك تنوي العودة إلى الجزائر ومتى؟ ربما سأعود قريبا إلى السنيغال.. ونلتقي هناك.

وقررت البقاء آملا أن تعود سيرابا قريبا ثم صرت بعد ذلك أتصل بها عبر الهاتف وأصبحت تفضي إلي بمعاناتها ومشكلتها العويصة مع زوجها بيير وصراعها معه في المحكمة.

لازلت أزور تيام في بيته ولازلت ألتقي به في الزاوية أثناء التجمع الأسبوعي وقد أخبرته أن سيرابا تنوي الرجوع إلى السنيغال بعد حل مشكلتها مع بيير وهو يقول لي دائما أنا على يقين بأنها سوف تعود وستكون هنا في يوم من الأيام وبدا لي وكأن ذلك اليوم أمنية بالنسبة إليه ولا أدري أي شعور خفي لديه تجاه سيرابا.

كانت ماري تزداد صمتا وإجفالا عندما تأتي سيرابا إلى بيت تيام قبل أن تتزوج بعمر لاي فهي تستقبلها ببرودة تامة ولا تتحدث معها وكأن علاقة سيرابا مقصورة على تيام فقط.

وأنا لا أفهم نفسية ماري ولا أعرف طريقة تفكيرها أداري ما تفكر به نظرا لعدم القدرة على التواصل معها باللغة الأولوفية ومهما كنت قد تعلمت الكثير من الألفاظ إلا أنه غير كاف لأكون قادرا على الحوار العميق باللغة الأولوفية..

ترى ما هذا الإجفال من ماري عندما لا تحاول أن تقيم أي علاقة مع سيرابا؟ فهي على الرغم من كثرة صمتها إلا أنها من ناحية أخرى تقيم علاقات طبيعية وحميمة مع غيرها من نساء الحي فأراها تنـزوي مع بعضهن وأحيانا تنطلق أساريرها فتبتسم وأحيانا تبدو لي سيئة عندما أراها تتهامس مع امرأة سيئة تسكن في الحي المجاور ويبقى السؤال مطروحا لماذا هذه العلاقة الفاترة بين ماري وسيرابا؟!

لعل علاقة تيام بسيرابا لا تروقها وهي لا تستطيع الإفصاح عن مشاعرها لأنها تخشى تيام وهو يهيمن عليها هيمنة تامة بحيث تبدو أمامه كأمة مطيعة.

انتهى الحفل الأسبوعي في الزاوية وعدنا ثلاثتنا تيام وماري وأنا مساء يوم الجمعة، وما أن نزلنا من الأتوبيس في واكام وعرجنا نحو الحي واجتزنا المسجد الذي يقع على الدرب المؤدي للحي وعلى مقربة منه بيت تيام.. وبين المسجد وبيت تيام يقع منـزل سيرابا الذي كانت تسكنه مع أمها حتى التقانا (أوسمان) وكأنه كان في انتظارنا وأخبرنا بأن سيرابا وصلت ليلة البارحة وهي في بيتها مع بعض نسوة الحي وفعلا وجدنا مصابيح البيت مضاءة على غير عادتها.

وداهمتني حمى باردة وأحسست بالذهول واندهش تيام وأسرع في خطاه نحو البيت، أما ماري فقد ظلت تسير بنفس الخطى ولم يبد عليها أي اهتمام.

وأمر تيام ماري بأن تعد الغرفة لاستقبال سيرابا إذا جاءت لتسهر معنا وبسرعة أخرج معدات الشاي من القفة التي كان يحملها من الزاوية وهيأها تحضيرا لجلسة غير منتظرة..

أصلح تيام من شأن نفسه قليلا ثم خرجنا معا متجهين إلى بيت سيرابا..

طرقنا الباب وقد سمعنا لغطا لبعض النسوة بداخله وطلب تيام من المرأة التي فتحت الباب أن تخبر سيرابا بقدومه.

وأقبلت علينا سيرابا بعد لحظات متبرجة بفستان بنفسجي تتلألأ أقراصه الصغيرة الذهبية على ضوء المصباح الخافت الذي ينير مدخل البيت وقد وضعت بعض المساحيق على وجهها.

استقبلتنا بحفاوة تامة وصافحت تيام بحرارة ومدت إلي يدها مصافحة أيضا وبقيت بعض الدقائق تتحدث مع تيام بالأولوفية ولم أفهم إلا بعض الكلمات والعبارات القليلة.. كيف حال ماري.. هناك بعض الزميلات معي.. ودعاها تيام للزيارة.. فلبت الدعوة قائلة: سوف آتي بعد ساعة..

وعدنا من عندها وقد التبس تيام وتغيرت نبرات صوته ولاحظت بأنه لم يكن في حال طبيعية والغريب أنني لم أتأثر

باللقاء بل أحسست بجمود في مشاعري أحسست وكأنها امرأة عادية.. لا فرق بينها وبين أية امرأة أخرى جميلة ومتأنقة.

لم أستغرب هذه الحال التي عرتني فقد شعرت بمثل هذا الجمود في أحاسيسي في كثير من المناسبات المثيرة للدهشة وربما يرجع ذلك إلى أثر الصدمات والهزات النفسية العنيفة التي مررت بها.. لا أملك الجواب لهذه الحالة وأنا أمام سيرابا التي أحببتها وهي تبدو لي أجمل نساء القارة السمراء.

أما تيام فقد سمعت له زفيرا يصعد قويا مع أنفاسه وعبر كلماته المتقطعة.. ترى ماذا انتاب الرجل؟!

ولم أجد إلا تفسيرا واحدا لحالته وهو أن سيرابا قد فتنته كأنثى متبرجة جذابة ورائعة فهو لم يتماسك نفسه أمامها وقد بدت عارية الأطراف مستديرة النهدين وفي كامل الزينة والأناقة.

سهرنا شطرا من الليل مع سيرابا ولم تأتي بابنها عيسى معها تلك الليلة وكنت أود أن أراه.

ودار الحديث بالأولوفية بين تيام وسيرابا وماري ولم أفهم إلا القليل وأحيانا كانت تخاطبني بالفرنسية لتعود للحديث بالأولوفية مع تيام وهو يبدو في ظاهره هادئا ورزينا طيلة السهرة على الرغم من احتفائه بها..

فعلا كانت سيرابا تملأ المكان وتغمر البيت بثراء جسدها وثراء أنوثتها.. إنها امرأة ليست عادية على الإطلاق فهي تشبه عرسا دافئا أو كنـزا باهرا وهي جديرة بالاحتفاء..

أخبرني تيام في الغد بأنها لا تزال على خلاف مع زوجها بيير وأنها وكلت محاميا يدافع عن قضيتها وقد جمعت تكلفة المحاماة بشق النفس وسوف تعود إلى فرنسا في وقت لاحق لتأخذ حقوقها الزوجية كما أنبأني بأنها سوف ترافقنا إلى الزاوية عندما نريد الذهاب.

إذا غادرت سيرابا مكانا تركت فيه فراغا ووحشة ولا شك بأن تيام كان يشعر بهذه الوحشة وهذا الفراغ كان يشعر بذلك حتى قبل سفرها لذلك كان يكثر من زيارتها ويمضي معها الساعات الطويلة في بيتها.

مضى أسبوع تقريبا على مجيئها وقد قضته في الحي تتنقل بين زميلاتها وتزور أولئك البسطاء الفقراء الذين لا يملكون سوى تلك البساطة وتلك الحياة المغلقة التي يفرضها الجوع والعوز ولا يكاد ابنها عيسى يفارقها وقد انفرد بلونه الأشقر الخلاسي وشعره المسترسل عن بقية الأطفال السود الذين يتميزون بالشعر الأجعد والعيون السمراء.

حضرنا اللقاء الأسبوعي في الزاوية كالعادة ورافقت ماري سيرابا إلى جناح النسوة.. فامتزجت بهن وبعد الانتهاء من مأدبة

الغداء شاهدت سيرابا تنفرد مع فيرولين تلك الطاهية المسيحية الطيبة في الحديقة الخلفية تتجولان في ممراتها بين شجيرات الورد والبرتقال والموز، وكانت الزائرة الجديدة محط الأنظار هي وطفلها ولعل ألف سؤال كان يطرح في الزوايا والغرف ولم تكن ماري هذه المرة بنفس الحيوية التي تبدو عليها دائما عندما تكون في زاوية الشيخ بل لم تكد تبرح غرفة المطبخ.. وكأن مانعا يمنعها.

وقرر الشيخ الأكبر أن يقضي يوم غد في الضيعة وتحفز أهل الزاوية وأعدت العدة للصباح.

وسارت القافلة نحو الضيعة عبر الدروب الوعرة والأدغال والأحراش وظلت فيرولين ملتصقة بسيرابا وكأن علاقة ما ربطت بينهما.

تعرفت سيرابا إلى زوجة الشيخ الأكبر ورافقتها في موكبها النسوي وهي تتنـزه عبر الخضرة والماء والغريب أن هناك شبها كبيرا بين سيرابا وزوجة الشيخ إلا أن زوجة الشيخ ترتدي زيا يشبه زي الهنود أما سيرابا فقد ارتدت لباسا أوروبيا أقرب للسفور.

كنت أستمتع بهذا الجو الحافل الذي امتزجت فيه رائحة الفاكهة بمسك النسوة ورائحة التربة برائحة ثمار المنج، كما استمتعت فيه بأسراب الزرازير والطيور الدورية وهي تحلق

فوق السواقي المتدفقة والحياض المغمورة بالمياه بالإضافة إلى بعض طيور اللقلق والنوارس البيضاء التي تقترب وتتراجع أمام الفلاحين المنهمكين في قلب التربة.. أما سيرابا فهي كلحن الأرغن العازف في شرايين جسدي.

عادت القافلة إلى حي منج في آخر النهار وبات من شاء المبيت في الزاوية ورجعنا إلى واكام ترافقنا سيرابا.

ترى إلى متى وأنا لم أفاتح سيرابا بحبي لها؟

قضيتها لم تنته مع بيير وقد تعود في يوم ما إلى فرنسا وشعرت بـأنني أنتظر الوهم.

وقررت أن أفتح معها حوارا في الموضوع ولكن قبل ذلك لابد أن أعرف هلا تزال تنوي الارتباط بزوجها (بيير) أم أنها قررت الانفصال فعلا..

ترقبت الفرصة السانحة ولم تأتي.. لا أستطيع أن أزورها في البيت وحدي إلا إذا كان تيام معي وأنا لا أريد أن أطلعه الآن عن الموضوع إلا إذا تم القرار بيني وبينها واغتنمت فرصة لقاء عابر معها فقلت لها:

ألم تأتك أخبار من فرنسا عن القضية؟

قالت: إنني لحد الآن أنتظر وأنا على اتصال بالمحامي ولن تطول القضية كثيرا.

قلت: هلا يمكن أن تكون مصالحة بينكما في آخر المطاف؟

قالت: لا أعتقد ذلك فهو قد تخلى تماما والفجوة عميقة بيننا.

قلت: والنهاية؟

قالت: لا أداري ربما سأعيش هناك بعد أن أتحصل على حقوقي.

وقلت في نفسي سوف أنتظر حتى تتم القضية ويندمل الجرح ثم أستميلها رويدا رويدا وأسوسها باللطف والمرونة لامتلاك قلبها وتذكرت المثل الفرنسي القائل "إذا أردت أن تطيعك قلوب النساء فعاملها بالمرونة".

وبدأت أخطط لإقناعها بالزواج فصرت أهتم بها وبابنها عيسى الذي أصبحت أعتني به أكثر وأفاجئه ببعض الهدايا وكنت ألاطف سيرابا وأشعرتها بالرمز الواضح بأنني أرغب فيها وأحسست بأنها رائقه، وبدأت تفهم شيئا فشيئا بأنني أقصد الزواج منها.

وواصلت المعاملة معها بهذا الشكل حتى اكتسحت دنياها فاستكانت واطمأنت.

وخيل إلي أخيرا أنها سوف توافق إذا طلبت الزواج منها ولكن الوقت لم يحن بعد لأصارحها.

ينبغي أن أشعرها وأؤكد لها مسبقا بأنها سوف تعيش معي حياة دافئة ملؤها الحب والانسجام.. إذ أن الإخفاق في الزواج للمرة الثانية مع أستاذها معناه الدمار الكلي بالنسبة إليها

ولاشك بأنها تعي ذلك ومن ثم ليس من السهل عليها أن توافق ببساطة فصورة الانكسار مرتين في التجربة الزوجية لا تزال تخيم على واقعها وحياتها اليومية.. ومهما كانت تبدو باسمه في معظم الأوقات إلا أنني أدرك الجرح الغائر في أعماقها إنه من الصعب أن تنسى أو تتجاوز واقعها المرير.

وبينما كنت أنتظر اليوم الذي أصارحها فيه بكل شيء تفاجأت بقدوم عمر لاي إلى السنيغال حين أقبل إلى الحي يبحث عني.

وتشاءم تيام بقدومه حتى امتقع لونه.

وعلمت من عمر لاي أنه لم يتزوج من "أنا" وأنه سوف يقيم بشكل دائم في السنيغال..كما أخبرني بأنه على دراية بقضية سيرابا..

أما فيرولين فكانت تزور سيرابا باستمرار وسيرابا لم تنقطع هي الأخرى عن زيارة الزاوية في كل تجمع أسبوعي.

إن سيرابا وحدها الآن هي التي ستوقف العواصف والرياح القادمة عندما تأخذ القرار.

للتواصل مع المؤلف

saadoun54@hotmail.fr

0660327448